وزارة الثقافة

ثريا

تأليف: جمال الحسيني

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

ثريًّا

تأليف: جمال الحسيني

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٤
عن مطبعة دار الأيتام الإسلاميّة في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: جمال الحسيني

اسم الكتاب: ثريا

الطبعة الأولى: ١٩٣٤ عن مطبعة دار الأيتام الإسلامية في القدس

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

لوحة الغلاف للفنانة: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمساهمة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠ / ٣ / ٢٠٢٠

ثريَّا

تأليف: جمال الحسيني

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٤
عن مطبعة دار الأيتام الإسلاميّة في القدس

مقدمة

شهدت فلسطين حركة أدبية نشطة منذ نهايات القرن التاسع عشر ترافقت مع ازدهار الفنون بأنواعها كافة من مسرح وسينما وموسيقى، وكانت مئات الكتب في شتى مجالات الثقافة والعلوم تصدر في البلاد وتوزع فيها وخارجها. خلال القرن الذي سبق سرقة البلاد على يد الغزاة العابرين في مايو ١٩٤٨، نشطت حركة التأليف والطباعة والصحافة، وانتشرت دور السينما في المدن بطول البلاد وعرضها، كما انتشرت المسارح التي سرعان ما تطورت من «تياتروهات» في المقاهي إلى مسارح مستقلة، وظهرت الأندية المتخصصة بالتمثيل والتأليف وتنظيم النشاطات والفعاليات الثقافية المختلفة من عروض سينمائية إلى مسرحيات وحفلات موسيقية وحفلات استعراضية وندوات أدبية وقراءات شعرية. كانت فلسطين تزخر بكل ما يمكن أن يكون عليه حال أي بلد معاصر في ذلك الوقت.

وكما كانت الفرق المسرحية والموسيقية لا بدّ أن تؤدي عروضها على مسارح يافا كجزء من الشهرة المرجوة، كان كبار الكتاب العرب لا بدّ أن يقرأوا أشعارهم أو مداخلاتهم الفكرية فيها حتى يتحقق لهم ما يصبون إليه من سعة انتشار. وبشكل عام شهدت فلسطين حركة تأليف نشطة، وكانت المطابع دائمة الإنتاج، وانتشرت في البلاد محلات بيع الكتب وتوزيعها. والمتأمل لعناوين الكتب التي كانت تطبع في البلاد في النصف الأول من القرن العشرين سيلاحظ هذا التنوع والثراء في الموضوعات والحقول، فمن الرواية والشعر والفكر إلى العلوم

والفنون، ومن التاريخ والجغرافيا إلى اللاهوت والفلسفة، ومن التأليف المباشر إلى الترجمة عن اللغات الحية في العالم من الإنجليزية والفرنسية والروسية. حركة دؤوب وفعل مستمر ومكتبات عامرة ونشاطات ثقافية وفنية لم تنقطع. ولا نريد لهذا الحضور أن ينقطع، ونريد أن نتذكره دائمًا ونتذكر أن وجودنا على هذه الأرض كان مع خلقها ومع تشكلها من اللاوجود إلى وهج الوجود. من هنا تأتي إعادة طباعة هذا الكتاب كجزء من إعادة طباعة مؤلفات الأوائل وكتاباتهم.

تسعى وزارة الثقافة من خلال تدخلات مختلفة إلى الحفاظ على الذاكرة الوطنية واستعادة الموروث الشعبي وتعميم المنتج الثقافي الفلسطيني، من أجل أن تكون الثقافة حقيقةً وفعلًا حقًّا لكل مواطن، ومن أجل أن تواصل الثقافة دورها كأداة طبيعية في مقاومة الشعب الفلسطيني لكل محاولات إزاحته وسرقة أرضه وتحريف تاريخه. من هنا فإن هذه المبادرة لإعادة طباعة كتابات الأوائل في مجالات التأليف كافة من شعر ورواية وموسيقى وعلوم وتاريخ وفكر ليست إلا جزءًا من تدخلات مختلفة تعمل على الحفاظ على حركة المعرفة في فلسطين، وتأكيد الحضور الفلسطيني الذي يريد الغزاة أن يلغوه، لقد كانت وستظل فلسطين عامرة بما جادت وتجود به عقول أبنائها وبناتها وبما يساهمون به في حقول المعرفة والإبداع.

تضم هذه التدخلات إلى جانب هذه السلسلة إصدار أدلة الثقافة الفلسطينية المختلفة التي تغطي جوانب الفعل الثقافي الفلسطيني كافة من مسرح وسينما وفنون تشكيلية وآداب وتراث. الحكومة

بظـروف صقلـت ذوقهـا وشـحذت فكرهـا، وهذبـت خلقهـا، كـما حبتهـا الطبيعـة بجـمال أضـاء شـخصيتها وسـما بنفسـها.

وهـي أيضًـا منتهيـة. وغـدًا تطـوي في حيهـا شـهادة، وقـد أنعمـت نفسـها ثقـة، وقلبهـا أمانًـا، وحمّلـت صدرهـا آمـالًا. قلبـت صحائـف المجلـة لتعـرف اسـم الكاتـب... «ثابـت حسـين. غـدا. ب. ع»... لقـد سـمعت بهـذا الاسـم، ولكنهـا لم تعـرف صاحبـه. فهـو جـار صديقتهـا سـلمى الخـوري وهـو مثلهـا مـن القـدس. تـرى مـا هـو شـكل هـذا الشـاب الـذي يكتـب هـذا؟ أطويـل هـو أم قصـير؟ أجميـل أم قبيـح؟ إن أفـكاره تـدل عـلى شـخصية رصينـة قويـة. ونفـس توّاقـة وثّابـة! وراحـت تسـائل نفسـها: هـل تشـعر فيـما يشـعر بـه هـذا الكاتـب، وهـي مثلـه منتهيـة، وكلاهـما يلجـان العـالم في يـوم واحـد؟ نعـم! إنهـا تشـعر في نفسـها بطمأنينـة الثقـة، وفي قلبهـا بالطمـوح إلى الاسـتقلال الشـخصي، وتصبـو إلى التمتـع بحريـة الفكـر. ولكنهـا تحـس في قـرارة نفسـها بمـرارة! أليسـت هـي مغلولـة اليـد، مقيـدة العاطفـة؟ وليـس لهـا إلا أيـام ثـم تنقـضي، وتدخـل في حياتهـا الجديـدة مدفوعـة إليهـا عـن طريـق لم يكـن لهـا رأي في اختيارهـا؟! ألم تكـن خطيبـة سـهيل القـوصي بـدون اختيارهـا وإن كان برضاهـا؟ وهـل كان خطيبهـا يشـعر بمـا يشـعر بـه هـذا الكاتـب قبـل سـنتين، يـوم أن وقـف عـلى عتبـة الجامعـة مودعًـا؟ إنـه ذكي وغنـي وجميـل ونشـيط! ولا بـدّ أن يكـون قـد فكـر بمثـل هـذا، وداخَلَـه مثـل ذاك الشـعور. تنفسـت الصعـداء عنـد هـذه الفكـرة وأزاحـت عـن وجههـا الفتّـان خصلـة مـن شـعرها الأسـود اللامـع، فانكشـف عـن بيـاض

ناصع، تضيئه عينان واسعتان برّاقتان، ويزيّنه فم صغير رطب وأنف لطيف وجبين مشرق.

تابعت الفتاة قراءة المقالة، ولما انتهت جعلت تحدق بذلك الاسم «ثابت حسين. غدا. ب.ع.» وكأنها تريد أن تلتهمه كما التهم عقلها ما خطته يده. إنها أفكار كانت تجول في نفسها ولم تستطع التعبير عنها. وكان ثابت هذا قد اتصل بقرارة نفسها، وكان يقرأ ما في صميم قلبها، ويكتب في «مجلة التلميذ». وبعد تفكير طويل قالت: «إنه لعظيم»!

وسهيل؟ هل هو كذلك؟! إنها لم تختبره بعد! لقد فاجأها أبوها بخطبته وأنجز العقد في العام الماضي، فلم يدع لها مجالًا لتختار، بل أخبرها لترضى فرضيت بما اختار لها! قابلت سهيل في العطلة الأخيرة لأول مرة، ولكن روعة المفاجأة لم تترك لها مجالًا للاتصال بنفسه. ستحمل إليه هذه المقالة وتطلعه على ما في نفسها من عواطف، وما في عقلها من فكر، وتطلب إليه أن يرسمها على الورق كما يرسم ثابت هذا. إنه يحبها وسيفعل ما تريد، فكرت طويلًا. ثم عادت تحملق في ذلك الاسم المكتوب في ذيل المقالة، وكأنها ترى فيه معنى القوة والنشاط، وكأنها تعيد قراءة ما كتب!

وأطلقت نظرها من مقرها الجميل في كلية الإناث نحو الجامعة السورية المطلة على البحر الصافي الأديم. وأخذت تفكر، وكأنها ترى صاحب تلك المقالة يتجول مودعًا أبنية الجامعة وحوله زمرة من المعجبين به. فهل وقف سهيل مثل هذه الوقفة؟ وهل كان قمرًا

وسط هالة من الأنصار والأصدقاء؟ ربما كان ذلك فهو غني ينفق عن سعة، وجميل يجتذب القلوب، وذكي يعرف كيف يتصرف لاكتساب ثقة أصدقائه وإعجاب معارفه. ولكن هذه لطيفة جنيبتها في الصف، فهي ذكية وجميلة وغنية، ولكنها ليست بالمحبوبة! فلا يشعر الإنسان قربها بحرارة المودة وثقة الإخلاص! ألا يمكن أن يكون سهيل مثلها؟ وإذا كان ذلك فهل يمكن أن تحبه؟! ولماذا كبّلها أبوها بهذا القيد قبل أن تستقل بشؤونها الخاصة ويكون لها حق الاختيار؟! ولكن لم هذه الأفكار المؤلمة؟! إنها وحيدة أبيها وأمها، وهما يعبدانها. ولا بد أن يكونا قد اختارا لها ما هو الأصلح لتحقيق سعادتها. فلتُقصِ عن فكرها كل شيء غير سهيل وحب سهيل. فقد ارتبطت به وأصبحت له!

وارتفعت أصوات التلميذات في الملعب بعيدًا عنها، وكلهن فرحات مغتبطات بعد أسابيع قضينها في الدرس وسهر الليل لاجتياز الامتحان. وأرادت أن تقوم هي أيضًا وتشاركهن بهذا اللعب والسرور، وتقصي عن نفسها أفكارًا خلعت في نفسها أثرًا للحزن العميق!

وإذ بسلمى تقبل عليها تلهث مثقلة بحمل من الحقائب واللفائف الصغيرة، فقد ذهبت إلى المدينة لشراء بعض الحاجات ولترتيب أمر السفر في الغد مع ثريا وابنة عمها أمل. فألقت بحملها على المقعد وجلست تقول: لقد تعبت! تجولت كثيرًا في السوق فلم أجد شريطًا من اللون الذي تريدينه. ثم ذهبت إلى وكالة سيارات فستق، ولما لم أجد أحدًا من التلامذة الذين أعرفهم مسافرا في الغد صعدت إلى الجامعة، فعلمت هنالك أن ابن جارتنا ثابت يسافر في سيارة مستقلة

مـع بعـض الرفـاق، فرجوتـه أن يتركهـم ويصطحبنـا. إذ مـن العبـث أن نسـافر وحدنـا مـع أي شـخص لا نعرفـه. فقبـل مـسرورًا واعتـذر لرفاقـه. مـا أحسـنه! لقـد وجدتـه في الجامعـة يسـير بـين صحبـه ملـكًا غـير متـوج، إنهـم يحبّونـه ويجلّونـه. فهـو ذو شـخصية كبـيرة، وقـد بـرز في الألعـاب والـدرس معًـا. فهـو رئيـس فرقـة الجامعـة لكـرة القـدم، وقـد ربـح جائـزة الخطابـة، وسـيقيم لـه اتحـاد التلامـذة حفلـة وداع هـذه الليلـة. وتودعـه فـرق الكليـات غـدًا عنـد سـفره و...

- تمهـلي قليـلًا! مـا بالـك انحـدرت عـليّ بهـذه الأخبـار، وكأنـك القطـر قـد حلـت زواجـره في منحـدر سـحيق! ألعلـه اقتنـص قلبـك؟!

- ثريـا! اتـركي الهـزل جانبًـا! إن ثابـت أخـي، وإني لأحبـه محبـة أخويـة وأنـا فخـورة بذلـك أيضًـا.

- لم أقصـد إزعاجـك فلـماذا تنفريـن منـي هكـذا!؟ إنمـا قصـدت أن أدعـوك لتسـتريحي وتهـدئي أعصابـك أولًا، ثـم تقـولي مـا تشـائين! هـاتي الآن مـا عنـدك! تكلمـي!

وجلسـت سـلمى مقطبـة وقـد أثّـرت عليهـا صدمـة صديقتهـا. وكانـت ذات حسـن وجاذبيـة، تلـوح عـلى وجههـا أمـارات البسـاطة الحلـوة، وطهـارة القلـب والفكـر فقالـت:

- لقـد قلـت كل شيء وكفـى، إني أراك ملولـة مهتاجـة الأعصـاب بـدون سـبب. هـذه المـدارس عـلى اختـلاف أنواعهـا قائمـة قاعـدة، تعـج بالـزوار

والمودعين، وتتجاوب أصداؤها بضجة السرور. وأنتِ هنا قاعدة وحدك كالبومة الصغيرة على الأطلال الخربة! أريني ماذا تقرئين؟ مجلة التلميذ؟! لقد شبعنا تلمذة، وكرهنا حياة التلمذة وأخبار التلامذة، وأنت لا تزالين تلتصقين بها وتحدبين عليها. وما هو الموضوع الذي تقرئين عنه؟

اختطفت المجلة من يد سلمى وقرأت «اليوم الأول»، وصاحت ضاحكة هازئة.

- يا سلام! في اليوم الأول خلق الله الأرض والسماء! أهذا الذي تقرئين في مثل هذه الساعة؟ ومن هو هذا البلبل الغريد كاتب هذه المقالة؟

قلبت صفحات المجلة فلما انتهت إلى الاسم وجمت ثم صاحت:

- ماذا! ثابت؟! لا، هذا شيء عظيم! أريد أن أقرأها أنا أيضًا. وقرأت «إن أروع أيام الحياة...».

واختطفت ثريا المجلة من يدها وقالت:

- لا! ليس هذا وقته! لقد كرهت التلمذة والتلامذة وما يكتبون ويقولون، ولا يجوز أن تقرئي مجلتهم فوق هذه الأطلال الخربة! انهضي نمشي!

فأجابت سلمى ضاحكة معتذرة:

- أرجوكِ ثريا، دقيقة واحدة! لا بد أن يكون ما كتبه ثابت شيئًا عظيمًا. دعيني أقرأه بسرعة ثم نذهب!

- خذي واقرئي! ولكن اصمتي بعد ذاك أو غيري الموضوع. فإني أكره الإعادة والتكرار، وكثرة المدح للإخوان والجيران!

تناولت سلمى المجلة وراحت تلتهم مقالة ثابت التهامًا، وقد بدت دهشتها فرفعت رأسها إعجابًا، وابتسمت سرورًا. ولما انتهت نظرت إلى صديقتها نظرة الظافرة وقالت:

- أنتِ أيتها الأيقونة الذهبية! بل أيها التمثال النحاسي الأجوف تقرئين هذا ولا تشعرين بالقوة والنشاط والعظمة! ولا تريدين أن تسمعي ثناء و...

- ولا ذبذبية! ألم تقولي الآن أنك كرهت التلمذة وحياتها وأقوالها؟ فما بالك صرت كالفراشة خفة بعد قراءة ما كتبه هذا التلميذ! لقد قرأت هذا، وأعجبت به ولكنه لم يأخذ عقلي ويذهب بلُبّي! كما فعل بك.

- أنا لا أنكر ذلك. ولكن ألا تعترفين بأن ثابت عظيم؟ وأن كتاباته تنمّ عما في نفسه من عظمة، وقلبه من عواطف ساهية، وعقله من فكر ناضج؟! قولي لي بربك، هل قرأت لأحد مثل هذا؟ لا أريد أن أبخس الناس أشياءهم، فربما كان سهيل يكتب مثل هذا في السياسة فأنا لا أفهم السياسة.

فاصفر وجـه ثريا قليلًا وقامت بغضب:

- أنا لم أضرب على هذا الوتر. ولم أقل إن سـهيلًا خيرُ البرية!

- وأنـا لم أعـنِ هـذا أيضًـا. إنمـا أردت أن أقـول إن لسـهيل ذكاءً حـادًّا وقلـمًا مرنًـا وعلـمًا واسـعًا، وربمـا كانـت مقالاتـه في السياسـة والاقتصـاد تضاهـي هـذه المقالـة الاجتماعيـة!

- دعينا من هذا الموضوع وهيا نسير بين الصنوبر.

يعيش! يعيش! يعيش!

شـاعت الضوضـاء مبكـرًا في كليـة الإنـاث، وهرعـت التلميـذات يعـددن أنفسـهن للسـفر. وفتحـت أبـواب ذاك الحـرم لغربـاء الرجـال. فدخلوهـا يسـتلمون بناتهـم، أو يحملـون حقائـب سـيداتهم، أو ينقلـون أمتعـة زبائنهـم إلى سـياراتهم. وكانـت ضجـة وفـوضى. ووداع ودمـوع! وتحيـات وقبـلات.

وانطلقـت سـيارة مـن الكليـة تقـل سـلمى وثريـا وأمـل نحـو الجامعـة السـورية في الطـرف الآخـر مـن المدينـة لاصطحـاب الراكـب الرابـع ثابـت حسـين. فوقفـت عـلى جانـب الطريـق عنـد بـاب الجامعـة، ودخـل السـائق لاسـتدعاء الراكـب ثـم عـاد وحمـل الحقائـب، فـكادت الأوانـس الثلاثـة أن تلتهمهـا بأعينهـن وقـد رغبـت كل منهـن في التوصـل إلى معرفـة أخـلاق رفيقهـن وحالتـه مـن النظـر إلى حقائبـه. فقالـت سـلمى مـا أنظفـه! وقالـت ثريـا مـا أقـواه! وقالـت أمـل مـا أفقـره! ثـم التفـتن نحـو البـاب ينتظـرن قدومـه، خـاب ظنهـن.

وسـافر أقـوام وبقـي آخـرون. ومـا زالـت السـيارات تقـلّ مـن الجامعـة قافلـةً تلـو الأخـرى، فتنطلـق في الجهـات الأربعـة. وبقيـت سـيارة الأوانـس جامـدة في مكانهـا لا تبـدي حـراكًا حتـى مـن الانتظـار، وبـان الضجـر عـلى وجـه أمـل فقالـت:

- يظهر أن جاركم قليل الذوق يا سـلمى!

فتغاضت الاثنتان عما قالت ولم يبديا أي ملاحظة. وإذ بصوت يشق الفضاء «يعيش ثابت حسين! يعيش! يعيش! يعيش!». فتورد وجه سلمى وابتسمت فخرًا وإعجابًا، أما ثريا فقد امتقع لونها، وازداد خفقان قلبها سرعة، وتلفتت إلى الجهة الأخرى كي تضبط عواطفها. وهرع الواقفون على الأرصفة من التلامذة والسواقين والمتطفلين إلى الداخل وعاد الصوت العظيم مقتربًا «يعيش! يعيش!». فقالت سلمى:

- هذه فرق الجامعة تودعه! ليت أمه هنا فتراه وتفخر به!

قالت هذا وقد تساقط الدمع على وجنتيها البيضاوين، فأخذت تتشاغل في حل رباط حذائها ثم ربطه ثانية، إخفاءً لشعورها الفياض!

واقترب الصوت ثم اقترب جدًا. وقذفت الجامعة من جوفها المئات من الشبان الأقوياء، باسمين معجبين فخورين، وقد توسطهم شاب حنطي اللون، مفتول العضل، طويل القامة. يتلألأ في وجهه نور الذكاء وابتسامة رضى وسيماء الجد والرصانة!

فقالت سلمى لرفيقتها: هذا هو! هذا ثابت!

وأخذت تشير إليه بيدها. فتقدم نحوهن يحيطه رجال المستقبل يصيحون بلهجة مملوءة قوة وحماسًا: «يعيش ثابت حسين! يعيش يعيش يعيش!».

وأجالت ثريا بصرها في الجمع فشعرت أن أنظار الشبان قد صوبت نحوها معجبة بجمالها. فأسقطت مناديلها على وجهها. وأسدلت

العواطف المضطربة في نفسها غشاء آخر على حواسها فلم تعد ترى أحدًا ولا تسمع شيئًا!

وأحسّت أخيرًا بأن الراكب الرابع قد أخذ مكانه في السيارة وأنها بدأت تتحرك ببطء وسط هتاف تجاوبت أصداؤه بين أبنية الجامعة الضخمة، ولما سكن الصوت رفعت منديلها عن وجهها ونظرت إلى الأمام. هذا هو! كبير الهامة، مرتفع الرأس، عريض المنكبين! شاهدته من الخلف تحفّه سماء الرجولة والقوة والرصانة ثم رأته يلتفت نحو الجامعة، ثم يدخل يده في جيبه فيخرج منه منديلًا يمسح به دمعة ثائرة كبح جماحها برهة ثم ضاق بها ذرعًا فأطلق لها العنان! واقتربت سلمى منه فقالت:

- أهنّئك من أعماق قلبي! فأدار رأسه نحوها وقال:

- أشكر عواطفك أجزل الشكر!

ولما التفت يجيب سلمى رأى ثريا للمرة الأولى تنظر إليه مذهولة فبهره حسنها الفتّان. ولكنه غضّ طرفه تأدبًا وأدار رأسه بسرعة. ورأت هي تقاسيم وجهه من قرب، فتخيلت أنها تعرفه منذ الأزل، مع أنها لم تره قبل اليوم. رأت صفاته مكتوبة على وجهه بخطّ عريض. رأت سيماء العواطف السامية والحق القويم. فأخذت أطرافها ترتعش كأنها مُسَّت بتيار كهربائي وانكمشت في نفسها إخفاءً لشعورها.

وساد الصمت على الركب ولكلٍّ شاغلٌ في نفسه. ثم هبّت سلمى من سكوتها وقالت لثريا بصوت منخفض:

- اعذريني! إني حمقاء. لم أقدمه إليك!

- لا، لا لزوم لذلك ألا تعرفين العوائد؟!

- نعم، الحق معك!

ثم قالت لثابت بصوت عالٍ وكان جالسًا أمامها:

- لقد قرأتُ مقالتك «في اليوم الأول» وإني أهنّئك على توفيقك فيها. لقد أعجبت بها كما أعجب بها غيري! قالت هذا ونظرت إلى ثريا مبتسمة.

- أشكرك! إنها مقالة تلميذ بسيط. فإذا كان لها أي أثر على بعض القراء فذلك لأنها كتبت بإخلاص من قلب مؤمن بما كتب.

- وإن هذا الايمان ينبثق منها فيضيء قلب القارئ!

- يسرني جدًا أن أستمع إلى هذا الثناء الجميل ممن أعتقد بإخلاصه وجدّه، ولكن ربما كان في بعض الأفكار التي وردت فيها قسوة وشدة، وخروج عن المألوف، قال لي بعض أصدقائي إنه عندما قرأها تخيلني جنديًا قد امتشق حسامه وهاجم قاعة يرقص الناس فيها ثملين. وقال آخر إنه لم يتخيل الدون كيشوت حتى قرأ مقالتي هذه.

فضحك الركب كلهم. وقالت سلمى:

- أما أنا فقد رأيتك فيها جنديًا قد دخلت إلى مقر الضعفاء المترهلين تبعث في نفوسهم معاني القوة والنشاط.

- إن لي العزاء الجميل أن أجد تأييدًا من الجنس اللطيف. فإني خشن في أفكاري ومبادئي. ولكني أؤمن أننا لن نقوم لنتبوأ مكانًا ساميًا في هذا العالم إلا بهذه الخشونة. وإني من الذين يطالبون بالتضحية بملذات الحياة المادية لكي يتمتعوا بملذات الحياة المعنوية. ولذلك أجد نفسي في نزاع وصراع مع أصدقائي. فأنا أحرّم الشرب والتدخين، والتأنق في الملابس والجلوس لقتل الوقت الثمين في المقاهي. وأرى الالتجاء إلى التصعيد في الجبال في أوقات الفراغ لمناجاة الطبيعة والتفكير في أسرارها، وأميل إلى الألعاب الرياضية العنيفة، وأستمرئ التضحية وأتلذذ بغشيانها.

- ذلك لأنك قوي وتميل إلى القوة في كل مظاهرها.

- ومع هذا فإني أحس بضعف يجلب لي كثيرًا من المتاعب. فإني أشعر بالاشمئزاز من التملق في المعاملات والتحذلق في المجاملات. وأكره الكذب الأدبي الذي يسود محادثات الناس فيدعونه كياسة وهو ليس إلا غشًّا وتدليسًا، ولا أملك نفسي من إظهار عواطفي تلك وأضعف، فيرى بي كثير من الناس ذئبًا قد هاجمهم ينهش لحومهم فيجب رده إلى أدغاله. ومن أغرب ما أراه أنهم مع هذا يعطفون عليّ ويلتفون حولي. وأراني مع حالاتهم تلك أحبهم وأميل إليهم، أليست هذه مناقضات غريبة!

- لا أرى هناك مناقضات. لأن إيمانك بما تقول وتدعو إليه ظاهر في أعمالك. ولا شيء يُكسِبُ المرء احترام الناس مثل القول المتعدي إلى العمل، أما حبك لهم فذلك لأنك جاد في إخلاصك لا هازل!

كانت ثريا تستمع إلى هذه الأفكار المتدفقة من قلب مؤمن بصوت جذاب عذب، فتشعر بأنها تندفع من فمه إلى قلبها فتزداد إعجابًا بأقواله، ويقينًا بإيمانه... وإن هذا ما عرفته عن خطيبها المتأنق في معاملته، المتصنع في محادثاته، المتملق في ملاطفته. أين هو، وقد جالسته مدة ساعتين فبقي لها صندوقًا مغلقًا؟ من هذا الذي كادت تلمس ما يجول في عقله وتحس ما يضطرم بين جوانحه ولم تسمع منه بعد إلا كلمات؟!

هذا ما كانت تحب أن ترى فيه الناس أجمعين، صراحة! إيمان! قوة!

وفي السفر تزول الكلفة بين الرفاق على غير سابق معرفة، فتطمئن نفوسهم إلى بعضها وتتقارب أفكارهم. وكان الانضواء تحت سقف واحد، والسير على خطة واحدة، والتعرض لخطر واحد، يقارب فيما بين النفوس. فيسهل التعارف وتزول الكلفة. وهكذا وجدت ثريا نفسها بعد ساعة من ابتداء هذه السفرة مشاركة في الحديث الذي قام بين ثابت وسلمى، بدون شعور أو تنكير، تأخذ وتعطي وتبدي وتعيد، وكأنها عرفته منذ زمن طويل. وعندما أقبلوا على فلسطين قالت ثريا:

- انظروا! هذه مستعمرة صهيونية جديدة لم تكن قبل أشهر ثلاث. وكأنها نبتت من الأرض أو سقطت من السماء. إن هؤلاء اليهود

يهاجموننا كالذئاب الجائعة فماذا يصيبنا إذا استمروا في عملهم هذا؟

وقالت سلمى:

- أتظنون أننا في خطر من هذه الصهيونية؟ إني لا أعرف عنها إلا القليل.

فقال ثابت وقد بدت على وجهه أمارات الجد والاهتمام:

- الصهيونية مذهب ديني قومي يقوم على قاعدتين هما إسرائيل والهيكل. وغايتها جمع شتات بني إسرائيل، وإعادة كيانهم القومي حول الهيكل، ومكان الهيكل هو جبل موريا الذي يقوم عليه المسجد الأقصى. فالصهيونية لا تكون صهيونية في عرف اليهود إلا في فلسطين، وإسرائيل لا تكون أمة إلا حول الهيكل. ولا صهيونية بدون الهيكل في نظرهم كما قال آينشتاين «كالجسم بلا رأس». وهي في غير فلسطين كما قال سوكولوف «طفل بلا أم». وفلسطين عندهم ليست فلسطين الحالية بحدودها الحاضرة. بل إن العاطفة المجردة والخيال البعيد أدخلا في الصهيونية فكرة توسيع هذه الحدود حتى إنها لتضم شرق الأردن وسهول حوران وبعض أطراف سوريا والحجاز والعراق، يظهر ذلك مما جاء في كتب كبار الصهيونية أمثال سوكولوف وبنتويش وجيوتنسكي. وفوق هذا فهم يرجون أن يكون لمملكة إسرائيل سيطرة اقتصادية وسياسية على بلدان الشرق الأدنى كمصر وشمالي أفريقيا والعراق وتركيا.

فاندفعت ثريا قائلة:

- أوَ ليست هذه أحلام حالم؟

- نعم! وهذه الأحلام الصهيونية إنما كانت وليدة اضطهاد اليهود في شرقي أوروبا في القرن الماضي، وفي غربيها فيما سبقه من الزمن، إذ كانوا ينكمشون في بيوتهم المنبوذة المتراصة المحصورة، فارّين من الاضطهاد والقتل. وهم أذلاء لا حول لهم ولا طول، إلا أن يرجعوا إلى التوراة فيتلونها، ويتلذذون فيها بذكرى مجد غار، ودولة دارسة، وإنهم شعب الله المختار، وإن غيرهم من الناس أمم سائرة لا ميزة لها ولا اصطفاء. فيمتطون أجنحة الخيال، ويحلقون فوق سماء فلسطين، فيرون فيها إسرائيل في الهيكل، باسطا ذراعيه على ما حوله من البلدان، فيتأثرون بذلك الذكر وهذا الخيال، وينشدون «تنساني عيني إن نسيتك يا أورشليم!». هكذا انتقلت الصهيونية من حلم مضطهد، إلى عاطفة طامح، إلى عمل طامع! وهكذا انتقل الصهيوني من الخيال إلى العمل، ومن ذل الاضطهاد إلى جبروت الطمع. فقالت سلمى:

- ولكنهم لا يدّعون بكل ذلك، ولا يطالبون إلا بجزء ضئيل مما ذكرت.

- إن لليهود صفتيْن خاصتيْن هما التقية والكبرياء. أما التقية فهي وليدة الاضطهاد في شتاتهم، وقد أودعت في جميع أقوالهم وأعمالهم السياسية الإبهام والمناقضة والتكتم، حتى أنه ليصح أن يقال إنهم إن قالوا نعم كان عملهم سلبيًّا، أو لا كان إيجابيًّا، وإذا وعدوا أمرًا أضمروا

خلافه، وإذا ذكروا شيئًا عنوا خلافه. وأما الكبرياء فهي وليدة التوراة. إذ ينشأ الطفل على قراءتها وتلاوة قصصها، فيشبّ وقد علقت في ذهنه فكرة عامة، وهي أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن غيرهم من الناس أمم سادرة. ولهذا فإن كبرياءهم تدفعهم إلى الطمع في الأعمال الجسام وتقيتهم تحدو بهم إلى الملابسة والإبهام والغموض والتناقض. كما يظهر من تصريح بلفور وصك الانتداب على فلسطين وكلاهما من صنع أيديهم بالاشتراك مع بعض رجال إنكلترا.

فقالت سلمى:

- وهل الإنكليز من الغفلة بحيث يصبحون ألعوبة بأيديهم؟!

- إن للإنكليز مآرب في الصهيونية، فهم ينظرون إليها من وجهة دينية وأخرى سياسية، فالدولة البريطانية يهمها أن تقطع اتصال البلدان العربية بإدخال جسم غريب في نقطة متوسطة فيها، يفصل اتصال أجزائها ويسمم جميع أعضائها بما ينفثه من سم زعاف. وذلك لكي تخضد من شوكتها، ولتسهل على نفسها المحافظة على طرقها البرية والبحرية والجوية، التي تخترقها غربًا وشرقًا وشمالًا وجنوبًا. أما مأربها الديني فذاك أن الكتاب المقدس، كما تعلمين، ينقسم إلى عهد قديم وعهد جديد.. وتقسم الطوائف المسيحية من هذا القبيل إلى قسمين، الطوائف القديمة وتهتم بالعهد الجديد، وتكثر من قراءته، وتتغذى بمعانيه، وتتأثر بتعاليمه ومبادئه. والطوائف الجديدة وتهتم بالعهد القديم وتنطبع بطابعه، وتتأثر بما جاء فيه. أما هذه فالبروتستانية

وأما تلك والكاثوليكية والطوائف الشرقية. فالإنكليزي ينطبع بطابع العهد القديم والطلياني مثلًا كالروسي ينطبع بطابع العهد الجديد، والأول طابع يهودي محض، يظهر فيه بنو إسرائيل أمة حية مشرعة؛ حاملة نبراس توحيد وهداية، وشريعة وأدب، وقد اصطفاها الله من بين الأمم لتكون شعبه المختار. والثاني طابع لا «يهودي» يظهر فيه بنو إسرائيل أمة متفسخة ظالمة. اضطهدت الأنبياء والمرسلين ظلمًا وعدوانًا، وأطفأت بفمها نبراس الحضارة والهداية، وقد لعنها الله بإيذائها المسيح عيسى بن مريم. وشتان ما بين الطابعين، وما يخلقان من أثر في النفوس. فالبروتستاني يرى في اليهودي رجلًا هاجر مع موسى وتلقى منه حكمة الإله. ثم تقلب في البلاد المقدسة، من مستمع إلى مزامير داود، إلى مشاهد لعظمة سليمان يتلو الحكمة والموعظة. ثم تناولته يد الشتات والاضطهاد، فهو في حاجة إلى الأخذ بيده من كبوته. والكاثوليكي كالشرقي، لا يرى في اليهودي إلا ذلك الظالم الحقود النمّام المتجسس، الذي سلم المنقذ إلى الصليب، فابتلاه الله بالشتات والذل بما صنعت يداه! ولهذا ترين الحكومة الإنكليزية تؤيد الصهيونية لتضرب بها البلاد العربية الناهضة. وأكثرية الشعب الإنكليزي تحدب عليها ويؤيدها متأثرًا بالعهد القديم ونبوءاته برجوع اليهود من شتاتهم إلى أورشليم في آخر الزمن. أليس من السخف، بل أليس من الكفر بالكتب السماوية أن يستعملها الناس لظلم الناس؟!

- نعم ولكن الشعب الإنكليزي والأمم البروتستانتية قلما تعرف ما تنطوي عليه الصهيونية العملية من مظالم. فهم يظنون أن البلاد

المقدسـة لا أهـل لهـا، وأن سـكانها خليـط مـن الغربـاء، وأنهـم في تأييدهـم الصهيونيـة إنمـا يهبـون بـلادًا بـلا سـكان لسـكان بـلا بـلاد.

فقالت سلمى:

- أَلَيْس لهذه الحالة الشـاذة من علاج؟

- علاجهـا الدعايـة الواسـعة الدائمـة المنظمـة. فـإن الحقيقـة تهـدم في يـوم واحـد مـا يبنيـه الباطـل في سـنة.

- أوَلَم تقم البلاد بدعاية واسـعة؟

- لا! بـل قامـت بدعايـة محـدودة متقطعـة غـير منتظمـة ولا ثابتـة. ومـع ذلـك فقـد جـاءت بأضعـاف مـا قـدر لهـا مـن النجـاح.

كان ثابـت يتكلـم بجـد وإيمـان، وقـد نـسي مـن يكلمـه، فـأدار رأسـه إلى الـوراء وجابـه نظـرات ثريـا النافـذة. فلـما أتـم حديثـه أحـسّ بتأثـير تلـك النظـرات، فانثنـى إلى وضعـه الأول وأخـذ يفكـر.

جـمال فتّـان! وذكاء فيّـاض! وصـوت عـذب يجتـذب القلـوب! هنيئًـا لسـهيل! وهـل هـو كـفءٌ لـكل هـذا؟! نعـم إنـه جميـل وذكي وغنـي ولكنـه.... لا يـدري مـا بـه... ولكـن مـاذا؟ إنـه رجـل ولكـن ليسـت لـه صفـات الرجولـة فهـو ذكي ولكنـه سـطحي التفكـير، وهـو نشـيط ولكـن ليـس لـه هـدف معـين، وهـو يعمـل في الحركـة الوطنيـة ولكنـه لا يؤمـن بهـا. وهـو غنـي ولكنـه لم يتخـذ غنـاه وسـيلة توصلـه إلى غايـات سـامية في الحيـاة. وإنـه خطـب هـذا المـلاك لا لأنـه هـام في حبـه بـل لأنـه جميـل! إنـه هـازل في

حياته غير جاد! هذا هو سهيل الذي عرفه في الجامعة.

وبعد خروجه منها! تحقق ثابت أن شخصية ثريا الممتازة سوف تصطدم بنفس سهيل المتقلبة الهازلة. فأحسّ برقة لها وحزن. والتفت نحوها خلسة فرآها تنظر إليه، فغض طرفه وأحسّ بارتعاش يغمر جسمه. وبعد برهة تظاهر بتعديل قعدته وأدار رأسه، فرآها ما تزال ترنو إليه منكرة. فسأل نفسه بماذا تفكر؟ ولماذا تصوب إليه هذه النظرات؟ ثم ازداد خفقان قلبه شدة، وأحسّ كأن نظراتها تخترق ضلوعه وتستكشف ما يجول في فؤاده فخجل من نفسه، وجدّ في إقصائها عن أفكاره.

* * *

وعند الأصيل أقيلوا على بيت القدس. فأحست ثريا بانقباض لم تعرف سببه وقال ثابت:

- قد وصلنا! سفرة موفقة ويوم جميل! إنها خاتمة رحلاتنا العامية وهي نعم الخواتم.

فقالت سلمى:

- وفاتحة خير لنا جميعًا. ونحن نشكرك على اصطحابنا فيها.

واندفعت ثريا فقالت:

- وعلى أفكارك القيمة التي أنرت بها أذهاننا.

- عفوًا! إنكما تعطياني أكثر مما أستحق.

وأمـرت سـلمى السـائق بإيصـال ثريـا وأمـل إلى بيتهـما في البقمـة أولًا. فوصلـوا بيـت ثريـا عنـد المسـاء. فخـرج عـلى صـوت السـيارة والداهـا وخطيبهـا سـهيل وكان في انتظارهـا هنـاك منـذ العـصر.

وألقـت ثريـا نفسـها بـين يـدي والدتهـا. ثـم أقبلـت عـلى والدهـا فضمهـا إليـه بلهفـة وقبلهـا قبـلات حـارة ثـم تقـدم بهـا نحـو خطيبهـا وكان يحـادث ثابتًـا فصافحتـه بحيـاء، وتقدمـت نحـو سـلمى وأمـل فودعتهـما بعـد أن تواعـدن عـلى متابعـة الزيـارات.

تـم تـرددت قليـلًا وعـادت فنظـرت بحـزم إلى ثابـت مـن الخلـف وتقدمـت مـادّة إليـه يدهـا فارتبـك لعـدم انتظـاره ذلـك منهـا. ونـزل مـن السـيارة مسرعًـا فصافحتـه وقالـت:

- أشـكرك على لطفك الجم وعنايتك العظيمة بنا في هذه السـفرة..

- لم أفعـل شـيئًا يسـتحق الثنـاء. وأنـا أشـكرك عـلى كل حـال. ثـم اعتـلى مكانـه وتحركـت السـيارة.

دخلـت ثريـا البيـت وقـد طوقتهـا أمهـا بذراعيهـا وغمرتهـا بحنانهـا. وتبعهـا بعـد برهـة وجيـزة مجـدي بـك وسـهيل وقـد ظهـرت عـلى هـذا أمـارات الكآبـة. فقـال والدهـا بلطـف:

- اسـمحي لي يـا ثريـا أن أصارحـك بفكـر عـنَّ لي كـما عـنَّ لسـهيل، إننـا نسـتغرب الحضـور بصحبـة رجـل غريـب!

فاهتـزت أعصاب ثريا من هذه المفاجـأة ولكنها تجلدت وأجابت بتؤدة:

- إذا كنتـم تظنـون أني لا أزال طفلـة، أو أن في أخلاقـي نقصًـا يسـتوجب حراسـتي، فقـد كان يجـب أن ترسـلوا إليّ مـن يـأتي بي..

- الحـق معـك يـا بنيتـي! اعذرينـي! كان ينبغـي أن نقابلـك بما هـو ألطـف مـن هـذا! أليـس كذلـك يـا سـهيل؟ الخطـأ منـا!

فأجاب سهيل:

- إني اعـترف بهـذا القصـور. ولكـن كان بإمكانكـن أن تأتـين بالسـيارات وحدكـن!

- أتظـن يـا سـيدي أن سـفرنا مـع سـائق غريـب أآمـن مـن مجيئنـا مـع رجـل تعرفـه إحدانـا حـق المعرفـة؟

فقال سهيل متلعثمًا:

- لا! فأنـت عـلى حـق في ذلـك أيضًـا. ولكنـي لم أجـد مسـوغًا لتلـك المصافحـة هنا !

- المسـوغ ظاهـر. فـإن الواجـب الأدبي دفعنـي إلى شـكر مـن خدمنـا في سـفرتنا هـذه وتـرك أصحابـه ورافقنـا عندمـا علـم أننـا نخـشى السـفر وحدنـا.

- لا يـا ثريـا! أنـا أكـثر منـك خـبرة في النـاس وفي التلامـذة خاصـة. فلـو لم تكـنَّ سـيدات لمـا تـرك صحبـه...

فامتعضت ثريا من هـذه التهمة واضطربت أعصابها وقالت:

- ربما كانـت أفـكار التلامـذة الذيـن عرفتهـم كـما تقـول، ولكـن الـذي ظهـر لي في هــذه الســفرة، أن هــذا التلميــذ مــن أكــرم النــاس نفسًــا، وأعلاهــم جانبًــا، وأوســعهم فكـرًا!

فصعـق سـهيل تحـت ثقـل هــذه الكلـمات. وشـعرت الوالـدة باضطـراب ابنتهـا وتحــرج الموقــف فقالــت:

- أظـن أن ثريـا عـلى حـق في كل مـا فعلـت. فالذنـب ذنبنـا في عـدم إرسـال مــن يــأتي بهــا. وأمــا مصافحتهــا لذلــك الفتــى فقــد كان الــذوق يفرضهــا. وكفــى!

فهبـط مجـدي بجانـب ابنتـه، ووضـع يدهـا بـين كفيـه كأنـه يعتـذر عـن قسـوته. وتحقـق سـهيل أن تلـك الطريقـة لا توصلـه إلى مـا يريـد فانقلـب عـلى عقبـه وقـال:

- إنمـا تأثـرت لمصلحـة ثريـا. وإذا كانـت لا تـرى في ذلـك بأسًـا فـإني أتبـع رأيهـا وأعتـذر إليهـا. فهـل تقبـل عـذري؟

قال هذا باسـمًا حزينًا وتقدم نحوها بلطف.

فقالت: نعـم! وصافحته ثانية وسر الجميع.

أيقونة البيت الذهبية

خرج سهيل من بيت مجدي بك في تلك الليلة مثقل الفكر مضطرب البال، فقد علم بذكائه الحاد وسرعة خاطره من محادثة ثريا أشياء كثيرة تدل على أن سفرها مع ثابت قد ترك أثرًا في نفسها ليس في صالحه! فما هو ذلك الأثر! أحبٌّ هو أم إعجاب؟ أما الحب فلا يمكن في عرفه أن ينشأ في قلب إنسان من النظرة الأولى! إن ذاك عنده وهم الشعراء والغاوين في الناس! فهذه ثريا نفسها وهي من أجمل النساء وأذكاهن وأكثرهن جاذبية. ومع هذا كله، فإنه للآن لم يشعر نحوها بما يسمونه حبًّا، بل يرى أنه معجب بها! وهو إنما خطبها لأنه رأى أنها أجمل سيدات المدينة! وهو يريد أن يحصل على كل ما هو جميل ونفيس. إنه غني وجميل وذكي، ويريد أن يتمتع من كل شيء بأحسنه. فسيارته أجمل السيارات وبيته أتم البيوت، فأراد أن تكون زوجته أجمل الزوجات. هذا رأيه في الحب. أما الإنجاب فهو ممكن من النظرة الأولى. ولكنه يرى أن هذا الإعجاب ربما انقلب إلى حب. وإذا كانت ثريا أعجبت بثابت اليوم أفلا يمكن أن تحبه غدًا؟

طغى شعور الحقد والغيرة على نفسه، وشعر بثقل في صدره وحرارة في وجهه!

لقد كان يرى ثابت موضع إعجاب التلامذة في الجامعة يوم أن كان من أبنائها، ولكنه كان أكبر منه سنًا، وأعلى مرتبة، فلم يكترث له. أما الآن وقد رآه رجلًا تام الرجولة، يتقدم برصانة وتعقل فطر عليها،

لينتـزع مـن يديـه أيقونتـه الذهبيـة، فقـد أحـسّ بالكـره الشـديد يملأ قلبـه، ويـسري في جميـع أعضائـه وأخـذ يفكـر! فـماذا يصنـع؟! يجـب أن يصليـه نـارًا حاميـة، ويعلـن عليـه حربًـا عوانًـا بـدون أن يـبرز لـه في الميـدان. ليعمـل حـالًا عـلى إظهـاره بمظهـر لا يـشرف بـين النـاس، ولينتهـز الفـرص بتـؤدة كي يضربـه الضربـة القاصمـة.

شـعر بالراحـة عنـد هـذه الفكـرة ورفـع رأسـه الجميـل وزال تقطيـب حاجبيـه، وسـار كعادتـه يتهـادى في مشـيته متأنقًـا وقـد فضّـل السـير عـلى الركـوب. وكان سـهيل ربـع القامـة أنيـق الملبـس حسـن الطلعـة جميـل الوجـه تـدل ملامحـه عـلى عـدم المبـالاة والاسـتخفاف في كل الأمـور، فهـو يـرى أن الحيـاة هـزل لا جـاد، وكان دائمًـا يقـول «ومـاذا يفيـد الجـد في حيـاة آخرتهـا عليـك لا لـك؟».

أمـا ثريـا فقـد جلسـت بعـد خروجـه بـين والديهـا تتلقـى فيـض حنانهـما، وحـرارة قبلاتهـما. ورغـب والدهـا في تلـك البرهـة التـي انتـشر فيهـا الحـب في ذلـك الجـو الهـادئ، أن يخفـف مـن حدتهـا نحـو خطيبهـا فقـال:

- إن جميـع مـا قلتيـه لسـهيل بشـأن رفيقكـم اليـوم، حـق لا مـراء فيـه. فقـد كان مـن الخطـأ أن يتأثـر مـما رأى. ولكنـه مـن جهـة أخـرى لم يتأثـر إلا مـن غيرتـه، والغـيرة دليـل الحـب. فلـو كلمتيـه بلهجـة أرق لـكان ذلـك أليـق لـك وأولى بـه.

- إني أعـترف بشـدة لهجتـي في محادثتـه. ولكـن ألم يكـن الأجـدر بـه أن يبـادرني باللطـف مـا دام عـذري واضحًـا وتقصيره بيّنًـا؟ ثـم ألم يكـن مـن

قلـة الـذوق أن يغتـاب ذلـك الشـاب وهـو يدعـي صداقتـه، وقـد رأينـاه يتركنـي ويصافحـه قبـلي!

- نعـم! ولكن الغيرة تعمي وتصم!

- وإذا كانـت غيرتـه في هـذه الشـدة منـذ اليـوم، أتظـن يـا أبي أنـه يمكننـي أن أعيـش معـه دهـرًا طويـلًا؟! أليـس في الغـيرة دليـل عـلى عـدم الثقـة وإذا كان ذلـك أيمكننـي أن أرضى لـه بهـا؟!

صمـت الوالـد واجـمًا، وألقـى بنفسـه عـلى منضـدة خلفـه. وكان طويـل القامـة واضـح المحيـا حسـن الطلعـة رقيـق الحـواشي تـدل أسـارير وجهـه عـلى ضعـف في صحتـه وعـلى شـيخوخة تهاجمـه قبـل الأوان. وبهتـت الوالـدة لمـا سـمعت وحسـبت لذلـك ألـف حسـاب. وبعـد برهـة قالـت:

- إن مـا تشـعرين بـه يـا ثريـا هـو مـا تشـعر بـه كل ابنـة قادمـة عـلى الـزواج. ولكـن ذلـك لا يلبـث أن يـزول، وإذا كان سـهيل لم يـرق لـك في هـذا الموقـف، فسـيروق لـك في كل المواقـف الأخـرى!

- ليـس لي مـا أعـترض عليـه إلا بعـض صفـات لـه تخالـف صفـاتي. واني أود مـن صميـم قلبـي أن أحبـه، وأكـون لـه الزوجـة الوفيـة. وأرجـو أن أوفـق إلى فهـم أخلاقـه وصفاتـه، فـلا نعـود إلى هـذا الاصطـدام.

فألقــت والدتهــا ذراعيهــا حــول عنقهــا وضمتهــا إلى صدرهــا، وغمرتهــا بقبـلات حـارة. وكانـت الأم ربعـة القامـة مسـتديرة الوجـه تلـوح عليـه أمـارات الجـد والإخـلاص وقالـت:

- نعـم يـا ابنتـي هـذا هـو العقـل الراجـح. عـوّدي نفسـك عـلى أطباعـه، وتغافـلي عـن السـيئات فـلا تنظـري إلا إلى الحسـنات، وهـي فيـه كثـيرة. «ولا إنسـان مـن عيـب سـليم».

- سـأفعل ذاك ما دمت قادرة عليه!

فـسرّ والدهـا بذلـك وضمهـا وقبلهـا. ثـم نهضـوا كلٌّ إلى فراشـه. ونـام الوالـدان أمـا الابنـة فلـم تنـم. لقـد كانـت مثقلـة الفكـر، متهيجـة الأعصـاب. وقـد قـام في نفسـها نـزاع شـديد بـين عواطـف متباينـة متضاربـة... داهمتهـا شـخصية ثابـت فأخـذت تسـتجمع قواهـا لصدهـا. وثـارت نفسـها مـن اسـتبداد والدهـا بزجهـا في خطبـة سـهيل فجـدت في إقنـاع نفسـها بخطـأ رأيهـا وصـواب مـا فعلـوا! واتضحـت لهـا صفـات سـهيل الضعيفـة بعـد مقايسـتها بصفـات ثابـت القويـة، فأخـذت تتغـاضى عنهـا وتذكـر محاسـن وجهـه، وذكاءه وغنـاه! وانتهـت بعـد تحـرق وتقلـب إلى أن الـذي يتحتـم عليهـا هـو أمانـة العاطفـة في سـبيل القيـام بالواجـب. وأن هـذا يتطلـب منهـا أن تنـسى ثابتًـا وتغمـض عينهـا عنـه، كي يتسـنى لهـا أن تذكـر سـهيلًا وتـراه!

وقامـت في الصبـاح أهـدأ بـالًا وأكـثر نشـاطًا. وجلسـت بـين والديهـا عـلى إيـوان واسـع فـرش بالطنافـس الثمينـة ووضـع في شرفـة تطـلّ عـلى جنينـة أنيقـة، تعانقـت فيهـا أصنـاف الـورود، وتمايلـت في جوانبهـا أغصـان الرياحـين فقـد كانـت والـدة ثريـا تتعهدهـا بنفسـها وتشـملها برعايتهـا الخاصـة. وأخـذ والداهـا يحدثانهـا ويسـتأنسـان بهـا. وقـد غمراهـا بحنانهـما

وعطفهما فشعرت بسعادة الحب الصادق والعطف المتبادل. وذكرت بأن هذه الأوقات العذبة قد آذنتها بالانتهاء، وأنها سوف تصبح آلة تدار بواجب الزوجية الجامدة، وأيقونة تزين بيت الزوج! فتساءلت، ألهذا أرادها والدها؟! ألهذا ربّياها وعلّماها؟! أهذه غايتها في الحياة؟! أهذا حظها من الدنيا؟!

سقطت بالرغم منها دمعتان أذابتا قلبيْ والديها. فأقبلا عليها وقد أخذتها الرقة والحنان، وأخذا يسألانها ما بها.

- لا شيء! إنما أحسست بحبكما هذا، وخوفكما عليّ، وشعرت بأن سعادتي هذه ستنتهي قريبًا.

- لا يا بنيتي! إن ما ستنتهين إليه هو السعادة. وذلك لقاء! ونحن سنكون دائمًا بالقرب منك، وحول بيتك الجديد. إذ لا طاقة لنا على الابتعاد عنك.

- إني آمل ذلك! ومع هذا فأنا أظن أن هذه السعادة التي أتمتع بها بينكما لن تعود! إني الآن أشعر بحرارة الحب الصادق والحنان والرأفة، أما هناك فأخشى ألا أجد ذلك.

- لا يا ابنتي! بل ستجدين هنالك من المحبة والعطف أكثر مما تظنين. وهذا الذي تحسين به إنما هو شعور العرائس عامة. فلا تدعيه يستولي على نفسك فيورثك كآبة!

- أتظـن يـا أبي أنـه لـو كان للبنـت كلمتهـا في اختيـار خطيبها لكنـت إذن أشـعر بمـا أشـعر بـه الآن؟

أفحـم الوالد بهـذه المجابهة ولم يحر جوابًا! وقالت الأم:

- لقـد كـبر عقلـك كثـيرًا في هـذه السـنة حتـى أصبحنـا غـير قادريـن عـلى إقناعـك بـشيء! ولكـن يـا بنيتـي يجـب اعتبـار الأمـر الواقـع. فأنـت اليـوم خطيبـة سـهيل بـل زوجتـه. وإنـك سـتجدين لديـه كل مـا تشـتهين. فهـو غنـي ينفـق عـن سـعة وإني أرى أن في نفسـك قـوة لا توجـد لديـه. فهـو هـيّن لـيّن يمكنـك أن تسـيري بـه أينـما تشـائين.

- وهـذا مـا أمقتـه فيـه يـا أمـاه! لـو كان لي الخـيرة في زواجـي لاخـترت رجـلًا فيـه صفـات الرجـال لا صفـات الإنـاث! ثـم مـا الفائـدة مـن قـصر فخـم مشـحون بالطنافس والريـاش مـن كل غـالٍ وثمـين، إن لم تنتـشر فيـه حـرارة الحـب الصـادق! إن المـرأة في مثـل ذلـك البيـت تكـون إحـدى اثنتـين، فإمـا أيقونـة تزيّـن قرنـة أنيقـة فيـه، أو خادمـة تعمـل عـلى ترتيبـه وتنظيفـه!

حبيبتـي ثريـا! اتـركي هـذه الفلسـفة، ولا تشـغلي نفسـك بهـذه الأوهـام المحزنـة! إن الاختبـار علمنـا أن نظرياتـك هـذه تـذوب إذا مـا عرضـت الحقائـق الواقعـة.

فنظرت ثريا إلى أمها نظرة أودعتها كل ما في نفسها من عتب وحب وقالت بتؤدة:

- أنسيتِ يا أمي أحاديثك الشيقة لي من أيام خطبتك؟ وكيف كنتِ عندها تقضين الساعة تلو الساعة وراء النافذة المغلقة المطلة على الشارع، لعلك ترين والدي يمرّ فتختلسين منه نظرة تلهين بها، حتى يحلّ اليوم الثاني، فتعودين إلى النافذة لعلك تختلسين منه نظرة أخرى! فأين ذلك مني الآن؟! وإذا كان هذا هو اختيارك الشخصي، ألا ترينه يتفق مع نظريتي؟!

طغت العواطف الوالدية على الأم فسالت دموعها مرارة. ووقف الوالد حزينًا كثيرًا لا يحير جوابًا وقد تحققا الآن خطأ ما صنعا. وشعر بثقل ذلك الخطأ على قلبيهما. فمالت ثريا على أمها بحنان وطوّقت جيدها بذراعيها الناعمتين وقالت:

- لا تحزني يا أمي! سأقوم بما يجب علي! سوف أبذل جهدي لتلافي ما فات فهيّا نسير في الخلاء نتلقى نسيم الصباح! فنهضوا يريدون الخروج وإذا بسهيل يدخل باسمًا فقال:

- أراكم مزمعين على الخروج. ولا أريد أن أعيقكم.

فقال مجدي:

- لا مطلقًا. أردنا أن نتجول قليلًا في الهواء الطلق. ولا بأس بحضورك معنا.. لنقعد قليلًا ثم نخرج جميعًا، إذا لم يكن لديك مانع!

- لا أبدًا. فهذا جلّ مناي! ورغبت ثريا بانتهاز هذه الفرصة لملاطفة سهيل وتحسين ظنه في ثابت فأخرجت من حقيبتها نسخة «مجلة التلميذ»، وتقدمت إليه باسمة تقول:

- أريد أن أطمئنك على أن الذي رافقنا البارحة هو صاحب هذه الأفكار!

فتبسم سهيل وتناول المجلة بفتور، وأخذ يقرأ. وصمتت هي تراقب حركاته معتقدة أن قوة تلك المقالة ستنتشر على وجهه، وتملأ نفسه. فيعتذر لها عما بدر منه البارحة نحو ثابت، ويحسن ظنه به. وانصرفت الوالدة تدبر بعض شؤونها قبل الخروج، وتشاغل الوالد في غرفته. وأخذت ثريا تلاحظ في وجه سهيل من أمارات التهكم والاستخفاف خلاف ما ظنت. فلما أتم قراءة المقالة، قال مفاجئًا:

- معتوه آخر يدخل الميدان!!

فأحسّت ثريا بطعنة في صميم قلبها. وقالت متحفزة للخصام:

- من هو المعتوه؟!

- لماذا اضطربتِ هكذا؟ أردت أن أقول أن ثابت قليل الاختبار، فمتى تقلب في أحضان هذه الدنيا وصقلته تجاربها، وجد أن الفكر غير العمل، وأن ما يسهل وصفه على القرطاس يستحيل العمل به بين الناس!

- أتظن أن أفكاره هذه خيالية؟

- نعم وقد آوبت مثل هذه الخيالات عندما كنت تلميذة مثله. أما وقد انكشفت لي الحياة عن حقيقتها، وعركتني الدنيا باختيارها، فلا يجوز لي أن أغتر بتلك الخيالات. بل ها أنا ذا أنفذ مآربي وأصل إلى غاياتي وأقود هذه المدينة بأسرها لا عن طريق هذه الأقوال المجردة بل عن طريق الدراسة والسياسة والمداورة اللبقة و...

- اسمح لي! أنا أحب الاستقامة في كل أمر، وأرجو أن نتعامل دائمًا على هذا الأساس!

- أرجو ألا تسيئي فهمي. إني أقول هذا بالنسبة للناس. أما أنت فليس لك إلا ما تحبين من الاستقامة والصراحة!

- أو تظن أنه يمكن للإنسان أن يكون ذا نفسين وخلقين متناقضين، يستعمل كلًّا منهما لغاية وظروف مخصوصة؟

- بالطبع. وهذا معيار الاقتدار والدهاء. وهذا ما يجب أن يتحلى به كل عاقل يعدّ نفسه لقيادة الناس. وهذا ما أود من صميم قلبي أن أراك تتحلين به. ولا أشك بأن ذكاءك الفطري سيوصلك إليه.

- لا! أنا لا أحب هذا! إنما خلقت بنفس واحدة وخلق واحد.

حار سهيل في أمره. وسُرّ إذ رأى مجدي بك مقبلًا يدعوهما للخروج.

وزار بعد يومين مجدي بك وزوجته وابنتهما سهيلًا في بيته، ردًا لزياراته العديدة وزيارة والدته بعد حضور ثريا. فوجدوه في الباب يحدث رجلًا كان يكثر من الانحناء إليه، وهو يسير إلى الخلف، حتى كاد يلقي بنفسه تحت عجلات سيارتهم. فلما دخلوا قال مجدي بك:

- من هو ذلك الهدهد الساجد الذي كدنا ندوسه بسيارتنا؟

فأجاب سهيل ضاحكًا مفتخرًا:

- هذا مراسل جريدة البريد اليومي. وهو من الأبواق التي يتحتم علينا أن نجلوها بماء الذهب من آونة إلى أخرى كي تقوم بما يجب.

- لقد عرفت ذلك، من كثرة احترامه وتودده!

فقالت ثريا عاتبة:

- ولكن ألا يقال لها رشوة؟

- هذا هو الواقع. وهذه هي العوائد. ولولاها لضل الناس السبيل. واستولى على الصحف المشاغبون من الناس وأصحاب الخيالات العقيمة.

- ومن هم هؤلاء المشاغبون!!

- اسمحي لي أن أقول بصراحة إنك حساسة جدًا. وإني أجد نفسي مقيّدًا في التحدث إليك. فلا أقدر أن أصرح بأفكاري خشية أن تسيئي فهمي.

- لا! إني أعدك بأن أحاول بكل قوتي أن أتفهم أقوالك وأفكارك، وأرى من نقطة نظرك.

- إذن دعيني أشرح لك حالتنا مع هؤلاء المشاغبين بهذا المثل العملي: لقد عرفت مكان البراق الذي لا تتعدى مساحته المئة متر. ورأيت تلك البيوت المتهدمة القذرة التي تحيط به. فهذه الأماكن التي لا تزيد قيمتها المعتادة عن بضع مئات من الجنيهات يدفع اليهود فيها اليوم نصف مليون. ومع هذا ترين هؤلاء المشاغبين يقاومون بيعها مدعين أنهم مدفوعون لذلك باعتبارات دينية وسياسية. فهل رأيت سخفًا أعظم من هذا؟

- ولكن ألا ترى قيمتها الدينية؟

- وأي قيمة هذه؟ ونحن لنا تلك الدرة اليتيمة الداخلية التي تغنينا عن كل شيء وإننا بالتخلي عن هذا المكان البائس، نربح مبلغًا طائلًا من المال، ونضرب للعالم مثلًا أعلى في التساهل وسعة الصدر، ونجلب لنا عطف العالم الأوروبي في جهادنا القومي.

- إني أذكر أنك منذ أمد غير بعيد وقفت خطيبًا في المسجد تظهر أهمية البراق وتحث الناس على التمسك به والدفاع عنه. لقد نشرت ذلك جميع الصحف وقرأته في بيروت فهل تبدل فكرك؟

- لم يتبدل مطلقًا. وأما نحن مضطرون أن نساير الرأي العام إذا ما اهتم بأمر ما، وقام هؤلاء المشاغبون في تضليله. حتى إذا استوثقنا منه وألقى إلينا مقاليده، قمنا نفعل ما فيه الخير له بدون أن نصطدم به.

- وهل تظن أنكم ستتوفقون في بيع البراق من اليهود؟

- نحن ساعون لذلك! ونرجو أن يقلع هؤلاء المشاغبون عن شغبهم والمتعنتون عن تعنتهم كي نعمل في جو هادئ، إلى إتمام هذا العمل المفيد.

- إذا كنت ترى أن هذه الوساطة إنما يقصد بها وجه الله، فأرجوك أن تتركها لغيرك. إني لا أحب أن تكون سمسارًا ولو بنية حسنة.

- أرأيت كيف أنك لم تفهمي قصدي وأنك لا تزالين تحكمين عليّ بقسوة؟

- لا. لا أريد أن أفهم هذا. لا أدري! لعلي من أولئك المعتوهين المشاغبين! أبي أبي! ألست من رأيي!!

- أنا لا أفهم السياسة مطلقًا. ولكني أثق بما يقوله سهيل، لأنه خبير بهذه الشؤون.

- وأنا أثق باختياره. ولكن ما يقول يؤلمني!

فقال سهيل بنزق:

- إذن لا أقول شيئًا، لنترك هذا الموضوع!

***

انقضى الأسبوع الأول منذ عودة ثريا، وهي تدرس أخلاق سهيل وعقليته وكانت تزداد يقينًا كل يوم بضعف أخلاقه وإيمانه. ولم يحسن هو التصرف بعد أن تحقق من صلابة رأيها واستقامة مبادئها وصدق عزيمتها. وبدلًا من أن يجاريها بما فطر عليه من حب المداجاة والمداهنة، كما فعل في اليومين الأولين، رأى من الحكمة أن يهاجمها بلطف، ليزعزع أسس ذلك الإيمان المتين، ويقوض دعائم تلك العقلية القوية. ولكنه في أعماله تلك لم يزدها إلا إيمانًا وصلابة، فازدادت شقة الخلاف بينهما.

قبل الحفلة

تناول ثابت في بيته من يد موزع البريد بطاقة قرأ فيها:

«سهيل القوسي يتشرف بدعوة حضرتكم إلى بيته في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الخميس الواقع في ٢٥ تموز سنة ١٩٢٩ للحفلة التي يقيمها تكريمًا للسر أولفر وايلز رئيس تحرير جريدة الديلي ميل في ١٩-٧-١٩٢٩».

فتقدم بالبطاقة نحو والدته وكانت جالسة تنسج صدرية من الصوف فناولها إياها وقال:

- ماذا ترين؟ وأخذتها وقرأتها بتؤدة وفكرت قليلًا ثم قالت:

- لا بأس! اذهب. ألا ترى ذلك؟

- لا أرى بأسًا في الذهاب. غير أن ألبستي غير لائقة لمثل هذه الحياة، وأنتِ تعلمين...

فقالت بنزق:

- لا أعلم شيئًا يا بني! إنك تضيق على نفسك أكثر مما يجب! لقد قلت لك مرارًا إنك في حاجة إلى ألبسة تليق بك الآن وقد أصبحت رجلًا بين الرجال. وفي الوقت متسع لإعداد نفسك لهذه الحيلة.

- أنسيتِ أن ذاك يكلف خمسة جنيهات على أقل تقدير؟!

- لا لم أنسَ ذلك! بل أريد أن يكلف عشرة جنيهات. وغدًا أدفع لك هذا المبلغ.

- ومن أين لكِ هذا وأنت غارقة بالديون!!

- اترك لي ذلك يا بني. ودعني أقوم بواجبي نحوك حتى تتوفق إلى عمل لائق تجني منه ما يقوم بأودنا. وعندئذ أحملك هذا الواجب وأترك الأمر لك.

- بل الأمر لك دائمًا!

قال هذا وأمسك بيدها فوضعها على فمه. وأخذ ينظر إليها وعيناه تفيضان حبًا ورقة. ثم ألقى بنفسه في جانبها وجلس كما يجلس الحمل جنب أمه ينعم بحنانها.

وكانت أم ثابت طويلة القامة، نحيلة الجسم، ثابتة النظر، بطيئة الحركة حنطية اللون. وقد بدت على وجهها أمارات الجد وبانت فيه تجاعيد تدل على الهم والتعب وكثرة التفكير.

توفي زوجها وثابت طفل في الخامسة من عمره. وأورثهما عقارًا كان يعود عليهما بدخل يرد عنهما ذل الفاقة. فعاشت منعمة بطفلها. فلما كبر وانتقل إلى الجامعة السورية، ازدادت نفقاتهما، فاضطرت إلى اتباع ضروب الاقتصاد. فحرمت نفسها مما اعتادت عليه من أطايب العيش، كي تنفق على ابنها من سعة، فلا يحس بين أترابه في الجامعة بأنه أقل منهم شأنًا في الحياة. غير أن الزلزال الذي اجتاح فلسطين سنة ١٩٢٧

قـوّض أركان بعـض ذلـك العقـار، فاضطـرت أن تسـتدين لترميمـه بفوائـد كانـت تلتهـم جـزءًا كبـيرًا مـن الربـح. وأخفـت ذلـك عـن ابنهـا في البـدء، وزادت في التضييـق عـلى نفسـها. فسـهرت الليـالي الطـوال تعـد لـه ثيابـه اقتصـادًا، وتتدبـر في نفقاتهـا تدبـر المسـتميت في سـتر فاقتـه عـن النـاس، والظهـور بينهـم بمظهـر يليـق بـه.

أمـا الآن وقـد أتـم ثابـت دراسـته، فقـد باتـت تنتظـر الراحـة، وتعـدّه لاسـتلام إدارة عقـاره، وتحمـل مسـؤولية ديونـه. وكانـت ترجـو بمـا تعرفـه فيـه مـن جـدّ واسـتقامة ونباهـة، أن يجـد عمـلًا ويتقـدم فيـه بسرعـة، فيسـدد مـا عليـه مـن ديـون. وعندئـذ تطلـب إليـه أن يفكـر في الـزواج. هـذه أمنيتهـا وتلـك غايتهـا.

فلـما اسـتلقى بجانبهـا واضعًـا رأسـه عـلى ركبتهـا تركـت مـا بيديهـا وأخـذت تعبـث في شـعره كـما اعتـادت منـذ أن رزقتـه. واسـتكان هـو إلى تلـك الحركـة اللطيفـة. وشـعر بحـرارة الحـب تندفـع مـن أصابعهـا إلى أطـراف جسـمه. قالـت:

- هل تعرف سـهيلًا معرفة جيدة؟

- نعـم لقـد عرفتـه منـذ أن ذهبـت إلى الجامعـة. ولكـن هـذه أول مـرة يدعـوني فيهـا إلى ولائمـه الكثـيرة. وأظـن أن ذلـك كان بإيعـاز خطيبتـه التـي أتـت معنـا مـن بـيروت. هـل تعرفينهـا؟

- أليسـت هـي ثريـا بنـت مجـدي بـك الصالحـي؟ نعـم رأيتهـا أكـثر مـن مـرة. ولكـن ليـس بيننـا تعـارف.

- وكيف وجدتيها؟

- إنهـا مـن أجمـل فتيـات البلـدة. ويظهـر أنهـا كريمـة الخلـق ذكيـة الفـؤاد أمـا أمهـا فمـن السـيدات المعروفـات بحسـن الـذوق والتعقـل وهـي معروفـة بتفانيهـا في حـب زوجهـا وفي تنظيـم شـؤون بيتهـا. وكيـف وجـدتَ ثريـا؟

- لو كتبت لي السعادة لكانت من حظي!

- مـاذا تقول؟ ألهذا الحد أثرت عليك؟

- نعـم! ولو لم تكن مخطوبـة لأقلقتك بالحديث عنها!

- ومـا دامت مخطوبـة فيجب أن تبعدها عن فكرك!

- بـلا ريـب! لقـد تذكـرت بهـذا الحديـث واجبًـا غفلـت عنـه، أني لم أرد زيـارة جارنـا سـليم.

- اذهب الآن!

- ألا تذهبين معي فترين سـلمى؟

- لقـد زرتها مـرارًا منذ عودتها. وعليّ الآن أعمال أود إنجازها.

قالـت هـذا ونهضـت إلى عملهـا. وقـام ثابـت إلى بيـت جارهـم سـليم. فلاقتـه ابنتـه سـلمى في البـاب، فرحبـت بـه ترحيبًـا يـدل عـلى صداقـة وإخـلاص وقالـت:

- كنـت أود أن أزوركـم الليلـة لأسـألك عـن بعـض أمـور قرأتهـا في الصحـف... أن مـا ذكرتـه لنـا عـن الصهيونيـة يـوم عودتنـا أوجـد في نفـسي اهتمامًـا في الموضـوع حتـى صرت أعتنـي بقـراءة الصحـف اليوميـة.

- إني أشـكرك عـلى هـذه الثقـة الغاليـة. وسـنتحدث عـما تشـائين. ولكـن أيـن الوالـد؟

- ذهـب قبـل مـدة وجيـزة، وربمـا لا يطـول غيابـه. لـو علـم بعزمـك عـلى القـدوم لمـا ذهـب. إنـه يحبـك لدرجـة أكاد معهـا في بعـض الأحيـان أن أغـار منـك!

فضحـك الاثنان وقال ثابت:

- إن والـدك كالذهـب، كلما حكه الإنسـان ازداد يقينًا بطيب معدنه!

- مـا أبرعـك في الـكلام! عندمـا أحادثـك أشـعر بـأني طفلـة! تفضـل نجلـس هنـا.

وجلسـا في غرفـة أنيقـة الفـرش مرتبـة ترتيبًـا يـدل عـلى ذوق واعتنـاء. وأخـذا يتحدثـان بشـتى المواضيـع. وإذ بالبـاب يقـرع. فقالـت:

- هذا والدي عاد. اسـمح لي دقيقة كي أفتح له. الخادم ليس هنا.

وبعد برهة سمع ثابت صوت همس وضحك، ثم دخلت سلمى تقود ثريا بيدها. فلما رأته اندفع الدم إلى وجهها وبدا الاضطراب عليها. ووقف ثابت مذهولًا وقد عقد لسانه، واختطف لونه، وأخذ العرق البارد يتصبب من جبينه. فقالت سلمى ضاحكة:

- كيف تريان هذه المفاجأة الحلوة؟! قلت لثريا هذا الصباح إنه لا يوجد في البيت غير والدي. وذهب والدي وحضرت أنت! فكانت هذه المباغتة... ها نحن في بداية سفرة ثانية. فكم صدفة خير من ميعاد!

قال ثابت:

- هذا من حسن حظي!

وقالت ثريا باضطراب ظاهر وبدون تفكير:

- لا لا يمكنني هذا، اسمحوا لي أن أرجع، ربما كنتم في حديث خاص! فتنهد ثابت من أعماق قلبه ومشى نحو الباب قائلًا:

- لا بل أخرج أنا. كان قصدي أن أزور سليم أفندي فلم أجده، وسأعود عند رجوعه.

فقالت ثريا والاضطراب بادٍ عليها:

- لالا... لا تذهب أرجوك... ليتني ما أتيت... لا أريد أن تظن أني جافة إلى هذه الدرجة... نقعد قليلًا ثم أذهب أنا... أو أنت... كما تريد!

وقالت سلمى وقد بدت عليها الدهشة:

- اعذراني! لا أدري ماذا أصنع! لقد نسيت أنه يجب على ثريا أن تحتجب الآن... لا أزال أشعر كأننا بعد تلميذات في المدرسة..

فقالت ثريا وقد زال عنها اضطراب المباغتة:

- ونحن لا نزال تلميذات. وأنا أتيت اليوم كتلميذة أستعلم بواسطتك عن أشياء من... أستاذنا.

وأشارت بيدها إلى ثابت باسمة. فقالت سلمى وقد أخذت تضحك:

- اجلسا إذن فلا حجاب بين الاستاذ وتلميذاته.

فضحك الثلاثة وجلسوا، وقالت ثريا فورًا وهي لا تزال متهيجة الأعصاب:

- لقد أكثرت الصحف في الآونة الاخيرة من البحث في قضية البراق. وقد كونت لنفسي رأيًا فيها، ولما بحثت الأمر مع سهيل، اختلفت وإياه بالرأي. فلما رجعت إلى والدي كي يحكم بيننا، أبى ذلك لأنه يمقت السياسة فلا يهتم إلا بالأدب والشعر. لذلك رأيت أن أقف على رأيك فأرى فيما إذا كنت مخطئة أم مصيبة.

فقال ثابت وقد هدأت أعصابه:

- لا أعرف رأي سهيل بالضبط في هذه القضية، ولكني أعتقد أنه من رأيي، وأظن أني قرأت له خطبًا عديدة في الموضوع، وكلها تضرب على

التمسك بحقنا الصريح، وألا نتساهل قيد شعرة مهما كانت الظروف. إن تساهل آبائنا في هذه الأمور هو الذي فتح أبواب الطمع لليهود، حتى لجوا في مطالبهم، وتمادوا في غرورهم، وتحذلقوا في تفسير ما سمح لهم به الأجداد، وطمعوا في الملكية العملية لمربط البراق الشريف. فإن ما يطلبونه اليوم هو جعل المكان الإسلامي المقدس كنيسًا يهوديًا.

فقالت ثريا وقد ظهرت على محياها سيماء الرضى:

ولكنّ سهيلًا يرى أن نسلم اليهود مطالبهم، ونظهر تساهلًا وسعة صدر يجلبان لنا عطف العالم المتمدن.

- اسمحي لي أن أقول إن هذا خطأ وضعف! فاليهود يطمعون في الحرم الشريف كما تدل على ذلك عقائدهم وأناشيدهم وكتاباتهم. لا بل إن الصهيونية تظل عقيمة عندهم بدون الهيكل الذي هو الحرم الشريف والاستيلاء على البراق إنما هو الحلقة الأولى من حلقات الاستيلاء على المسجد الأقصى..

وقالت سلمى:

- إني أستغرب جدًّا فكرة التسامح هذه، يقصد الظهور أمام العالم الغربي بمظهر يستجلب عطفهم، ونحن نرى رهابين الطوائف المسيحية على اختلاف أجناسهم وجلهم من هذا العالم الغربي، ويدينون بدين واحد، يتناحرون ويسفكون دماء بعضهم بعضًا في أماكنهم المقدسة بهذه المدينة، لاختلافهم على حق كنس البلاطة الواحدة، أو إضاءة

الشـمعة الضئيلـة، أو غـير ذلـك مـن الأمـور التافهـة، وذلـك عـلى علمهـم الواسـع، وادعائهـم بنـشر ألويـة السـلام والمحبـة بـين النـاس. وإذا كان هـذا دأبهـم فكيـف يجـوز للمسـلمين أن يسـلموا بحائـط مـن حيطـان أقـدس مـكان لديهـم، بقطـع النظـر عـن قدسـية ذلـك الحائـط بنفسـه.

- إني أظـن أن هـذه النظريـة المضيعـة في التسـاهل إنمـا هـي وليـدة غريزتنـا العربيـة في كرمنـا وتسـاهلنا في كل مـا نملـك.

فقالت ثريا:

- نعـم وربمـا كانـت مثـل هـذه الغريـزة المضيعـة أيضًـا هـي التـي تدفـع سـهيلًا إلى عقيـدة أخـرى، إذ أنـه يـرى وجـوب مسـايرة الإنكليـز في مخاصمـة الصهيونيـة. فهـو يقـول إنـه يجـب علينـا أن نتحبـب إلى الإنكليـز في خصامنـا مـع اليهـود كي نكتسـب عطفهـم.

- أمـا أن تكـون هـذه الأفـكار عاليـة لا أفهمهـا، وأمـا أن تكـون ضعيفـة إلى درجـة الضعـة. إن هـذه السـنوات التـي مـرت علينـا ونحـن نـداور هـذه السياسـة، قـد علمتنـا أن هـذه العقليـة، عقليـة التسـاهل والكـرم، مضيعـة متلفـة، لأن الأوروبيـين عامـة لا يفهمونهـا ولا يقدرونهـا حـق قدرهـا، بـل هـم يؤولونهـا أسـوأ تأويـل. فعندهـم أن هـذا الكـرم جـبن، وذلـك التسـاهل ضعـف. فـالأوروبي لا يعـرف الحـق إلا لمـن يلـح في طلبـه، وهـو عندهـم للقـوي لا للضعيـف! وهـم لا يحترمـون اليـد التـي تحمـل غصـن الزيتـون، بـل تلـك التـي تحمـل قضيـب السـنديان. هـذه سياسـتهم، وهـذا تاريـخ اسـتعمارهم.

- وماذا ترى في خصامهم؟

- الدعاية المنظمة الواسعة الثابتة. وانتهاج الخطط السلمية الشاملة. وهاتان الخطتان لا بد أن تسير عليهما البلاد في كفاحها إن لم يكن عاجلًا فآجلًا.

- وهل هي ممكنة التطبيق؟

- نعم! إذا تهيأت لها أوضاعها وسادت على الناس روحها. فإن هذه الروح إذا طغت على أمة، أصبحت التضحية العظمى لدى كل فرد من أفرادها غاية سامية يسعى إليها وهدفًا يرمي إليه. وهذه الروح إما تطفَأَ إذا حلّ اليأس محل الرجاء. وعندئذ تصبو النفوس إلى التضحية بدون دافع بل من تلقاء نفسها. فترين الفرد فيها يعمل في الجماعة فلا ينتظر من جماعة قرارًا أو من فئة رأيًا، بل يقوم وحده، مندفعًا بشعور يشعله الأمان وتلهبه العقيدة.

- ومتى يحل هذا الزمن؟

- عندما تصبح القضية في قلوب أفراد الأمة وعلى الأخص المتعلمين منهم والمتعلمات، إيمانًا يعمر قلوبهم، ويلهب أفكارهم، وينسيهم أطايب العيش ولذائذ الحياة المادية. وإن الظلم الذي نرزح تحته والتمادي في الإرهاف مما يقرب حلول ذاك اليوم.

فقالت ثريا وقد تورد وجهها، ولمعت عيناها، وعلت جبينها أمارات الجد والحزم:

- ليتنا نشهد ذلك اليوم! أترى هل يكون لمثلنا فيه عمل؟!

- نعم ويكون لكن فيه عمل كبير. وأنتن تستطعن أن تعددن الرجال لذلك اليوم، فإذا حلّ كنتن فيه الروح التي تدفع بهم إلى الأمام، وتردهم عن التخاذل والنكوص.

وقالت سلمى وفي عينيها بريق الإخلاص، وعلى محياها ابتسامة الإعجاب:

- هكذا فعلت نساء العرب في وقعة اليرموك الفاصلة، فلقد كن في مؤخرة الجيش يدفعنه إلى القتال، فلما ارتد منهزمًا قمن يلطمن وجوه رجالهن، ويرددنهن بالعصي إلى ساحة القتال، حتى شججن رؤوس كثير من رجال العرب، فلما رأوا ذلك عادوا مستميتين، فكرّوا على الأعداء، وكسروهم شر كسرة. وتم لهم فتح هذه البلاد، وهكذا عقد النصر للنساء دون الرجال. فهل يقدر لنا أن نشهد مثل ذلك اليوم، ونسجل مثل ذاك الفخار؟!

- ولماذا لا يكون ذلك؟ ونحن في حاجة ماسّة إلى تلك الروح الجارفة وذلك الإيمان المشتعل؟ فإذا ما طغيا علينا قمنا للعمل ولا راد لأمر الله!

فقالت ثريا لسلمى:

- إني أشعر بالقوة تسير في عروقي، والإيمان الصحيح يتسرب إلى قلبي عند سماع هذا الكلام. وقد كنت طيلة الأسبوع الماضي مشغولة البال مثقلة الفكر ضعيفة القلب مما سمعت من... سهيل من عبارات القنوط والاستسلام.

فقال ثابت:

- يجب أن تعملي على إزالة هذا الضعف من نفسه، واجتثاث جذور ذلك القنوط في قلبه. ولا ريب عندي في أن الأمان الصحيح له عدوى كعدوى الأمراض السارية. وأن الايمان الضعيف يثبط الهمم ويخبل الأذهان. فيجب أن تهاجميه بإيمانك الصحيح، فتقضي على تلك الروح السقيمة!

- أترى أن ذلك من واجبات المرأة للرجل؟ أليس ذلك من واجباته نحوي؟

- نعم! ولكن يجب اعتبار الأمر الواقع!

- الواقع أن أفكاري لا تتفق مع أفكاره في شيء...

قالت هذا بسرعة وغضب. فوجم ثابت، وبهتت سلمى من تلك الصراحة المفاجِئة. أما ثريا فقد هاجمتها العواطف فلم تتمالك من رد دموعها. فوقفت بادية الاضطراب، ثم خرجت وقد شرقت بالدمع،

وثـار شـعورها. وتبعتهـا سـلمى إلى الغرفـة المحاذيـة فطوقتهـا بذراعيهـا، وأخـذت تخفـف مـا بهـا.

وبعـد برهـة سـمعت ثابـت ينـادي، فخرجـت إليـه فوجدتـه واقفًـا في الممـر حائـل اللـون تائـه الفكـر. فوقفـت أمامـه مذهولـة لا تـدري مـا تقـول، وبعـد برهـة قـال:

لا أدري كيـف أبتـدئ، ولا أعلـم إذا كان يحـق لي أن أتدخـل في أمـر دقيـق كهـذا، ولكنـي أرى الواجـب يدعـوني إلى إسـعاف هـذه السـيدة المملـوءة إيمانًـا وإخلاصًـا فيـما أقـدر عليـه مـن نصـح لا يتعـدى القـول المجـرد. ولـذاك أرجـوك أن تقـولي لهـا عنـي أن تعلـم أنهـا تحـت أمـر واقـع لا مفـر منـه، ولا خـروج عنـه. وأنهـا بحسـن التدبـر وتوطيـد النفـس يمكنهـا أن تخـرج مـما هـي فيـه مـن اختـلاف مـع خطيبهـا، ظافـرة قريـرة العـين. إن سـهيلًا غنـي وكريـم. فـإذا أثـرت عليـه تأثـيرًا حسـنًا، ولا أعتقـد إلا أنهـا بذكائهـا وإخلاصهـا تؤثـر عـلى كل إنسـان، ولا ريـب عنـدي بأنـه سـوف يندفـع بروحهـا وإيمانهـا، فيخـدم البـلاد أجـلّ خدمـة، ويكـون فضـل ذلـك لهـا. هـذا مـا أريـد أن أرجوهـا أن تفكـر بـه. وأنـا ذاهـب الآن، وسـأعود الليلـة لزيـارة الوالـد. لا تدعيهـا تخـرج مـن هنـا قبـل أن تزيـلي مـن نفسـها هـذا الغضـب!!

- أشـكرك! سـأقول لهـا ذلـك. لم أرهـا في حيـاتي شـديدة التهيـج كاليـوم. وإني أخـشى أن يكـون قـد حصـل بينهـما أشـياء كثـيرة في هـذا الأسـبوع. فـإني

أعرفهـا كثـيرة الكتـمان شـديدة الاحتيـاط. فـلا تخـرج عـن غريزتهـا تلـك مـن شيء عـادي.

خـرج ثابـت مضطـرب الفكـر.. وعـادت سـلمى إلى ثريـا فقالـت برقـة وحنـان:

- أتعلمـين ماذا قال ثابت؟

- نعـم! لقـد سـمعت مـا قـال! إني أشـكره عـلى شـعوره نحـوي. وأعـذره لأنـه لا يعـرف شـيئًا مـن أفـكار سـهيل.

- ثريـا! مـاذا تقولين؟ لقد خرجت عـن كل ما هو مألوف! فهل جننت؟!

فأجابـت ثريا وقد تحـدر الدمع على وجهها الملتهب:

- نعـم لقـد جننـت! لقـد جننـت! ليـس لي مـن أبثـه شـكواي إلا أنـت! وهـا أنـت ترمينـي بسـهام العتـب والانتقـاد، لقـد كنـت أحـاول تنفيـذ مـا اقترحـه ثابـت طيلـة الأسـبوع المـاضي. وكنـت كل يـوم أزداد يقينًـا باسـتحالة ذلـك. فسـهيل ضعيـف الإيمـان يتظاهـر بمـا ليـس في نفسـه. ويـرى أن هـذا الريـاء والخـداع حـذق واقتـدار. ويريـدني أن أحـذو حـذوه وأنسـج عـلى منوالـه. وفـوق هـذا فهـو فاقـد العاطفـة لا يشـعر بحـب لأي إنسـان ومـن الجملـة لي أنـا، وينظـر إلي نظـره إلى أيقونـة ذهبيـة يريـد أن يزيّـن بهـا صـدر بيتـه لا أكـثر ولا أقـل. فهـل خلقـت أنـا لهـذا، وهـل أصـبر عـلى مثـل هـذا!

- لا أدري ماذا أقول! لقد أضعتِ عقلي وشتتِ فكري بما تقولين. حبيبتي ثريا! روّحي عن نفسك أولًا وهدئي أعصابك ودعينا نعالج هذا الأمر بدم بارد، لعلنا نجد بابًا للفرج! قومي اغسلي وجهك أولًا وأزيلي هذه الدموع، وعودي إلى رصانتك. لا تتنهدي. كل صعب يهون بالتفكير، وكل ضيق يتسع بالمعالجة! دعيني أقبلك الآن، وأؤكد بأني لك دائمًا! ألستُ أختك الحنونة!

- ما أعذب هذه الكلمات! هذا ما أملته منك. لا تمسي قلبي الكبير بالانتقاد المر.

ثم نهضت فغسلت وجهها وشربت قليلًا من الماء البارد وعادت تقول:

- تعالي نقعد. أنا الآن أريح بالًا وأهدأ أعصابًا... قولي هل جننتُ حقيقة؟ أتظنين أن ثابتًا يحتقر الخفة التي ظهرت مني أمامه؟! هل قلت ما يوجب العتب الشديد؟!

- لا بأس عليك! لا تتأثري! لم تقولي شيئًا! وكلانا أخوانك، قدرك حق قدرك، ونؤمن بما تؤمنين ونحس بما تحسين... إنما هي العوائد تمنع الحرية والتبسط في الكلام إلى هذا الحد أمام الغرباء. ولكنّ عاقلًا كثابت لا يأبه لذلك.

- أعيدي عليّ ما قال ثابت. إني أريد أن أتبع نصيحته بحذافيرها. يجب أن أحاول ثانيًا. يجب أن أتغلب على سهيل ما دام ضعيفًا. لقد قال ثابت أن اكتسابه لعقائدنا يفيد البلاد لأنه نشيط وذكي. أليس كذلك؟

سـأحاول التأثـير عليـه بـأي طريقـة وأتعـزى بتضحيتـي. نعـم سـأكون أنـا الضحيـة...

- لا لا تقولي هذا. إن سـهيلًا من أجمل الشـبان وأذكاهم وأغناهم.

- ولكنـي أريـد غنى النفس، وجـمال الخُلق، هذا ما تصبو إليه نفسي.

- وهــذا مــا ســيكون لــك منــه إن عرفــت كيــف تجتذبينــه. وســيكون لــك منـه قـوة تعملـين بهـا في الخدمـة العامـة، فـإن كل الأبـواب مفتوحـة أمامـه.

- إلا باب الأمان!

- إذا كان ذلـك فعليـك أنـت أن تفتحيه له كما قال ثابت.

- نعـم هـذا ما قال ثابت! هذا هو الصواب.

فنظـرت سـلمى إلى صديقتهـا نظـرة أودعتهـا مـا أخـذ يخالـج قلبهـا مـن الريبـة وقالـت:

- ثريا! أتسـمحين لي بنصيحة صالحة أخرى؟

- ألديك شـك في ذلك!

- إذن انـسي ثابت بتاتًا!

وازداد خفقـان قلبها وهاجم الـدم وجنتاها وقالت متلعثمة:

- لقـد أردت أن أفعـل ذاك. ولكـن... سـهيل أبى إلا أن يذكـره ليـه ويـزدري أقوالـه وأفعالـه، فأدافـع عنـه.

- ذلـك خطـأ منـك. لأنـك كلـما دافعـت عنـه ازداد خطيبـك ريبًـا منـه، وإصرارًا عـلى التعريـض بـه. لذلـك عليـك بالسـكوت كلـما عـرض بـه أو ذكـره بخـير أو شر. وأقصيـه عـن أفـكارك بتاتًـا!

- أظـن هذا هو الصواب. خاطرك!

- مـع السـلامة! تشـجعي ووطـدي نفسـك عـلى الخـروج مـن هـذا المـأزق الحـرج منتـصرة نقيـة الضمـير والجبـين... وأنـا لـك دائمًـا. دعينـي أقبلـك مـرة أخـرى!

وخرجـت ثريـا تلتهـب بمـا يضطـرم بـين جوانحهـا مـن عواطـف متضاربـة... إذ كانـت تشـعر بواجبهـا نحـو سـهيل وتشـعر أيضًـا بالنفـور منـه والرغبـة عنـه. وتـرى واجبهـا في نسـيان ثابـت ولكنهـا تشـعر بتـلاشي إرادتهـا كلـما عملـت عـلى ذلـك. فـلا يهـدأ بالهـا إلا بالتفكـير فيـه وفي أفـكاره وإيمانـه وأخلاقـه.... إنهـا شـقية بائسـة... إنهـا منكـودة الحـظ.... وذلـك بخطـأ والديهـا اللذيـن يعبدانهـا! ومـاذا تصنـع بمصيبـة أتـت مـن أعـز النـاس إليهـا فـلا تطيـق لهـا ردًا؟! لقـد كتـب لهـا الشـقاء والعـذاب... فلتصـبر عـلى حكـم اللـه!

في الحفلـة دخـل سـهيل بيتـه الفخـم يلهـث، وقـد ظهـرت عـلى وجهـه الجميـل أمـارات التعـب. واندفـع نحـو والدتـه فسـأل ملهوفًـا:

- هل أتممتم تحضير كل شيء؟ والزهور؟ هل وصلت بحالة حسنة؟ كل شيء على ما يرام؟ أشكرك! لقد ذهبت لأرجو ثريا أن تحضر وتجلس وإياك في الشرفة الداخلية أثناء الحفلة فرفضت مدعية الصداع. لا أدري ما بها! إن لها أفكارًا غريبة، وعنادًا لا يعجبني. تعالي نرى ما تم.

دخل إلى بهو كبير، أعدت فيه مائدة فخمة حوت من أطباق الحلوى ما تشتهي الأنفس، وفرش المكان بالسجاد الثمين، وبثت فيه المقاعد الوثيرة وأعدت على جوانبه غرف واسعة لاستقبال الضيوف، اكتظت بوثير المقاعد، جميل الطنافس وقد صفت فيها باقات الزهور الجميلة، بترتيب يدل على ذوق حسن وبذخ. وقد أُعدّ للمحتفى به مكان خاص في شرفة تطل على منظر جميل..

ولم تأزف الساعة الرابعة حتى أخذ المدعوون يفدون أفواجًا. وجعل سهيل يستقبلهم ببشاشته ولطفه. وأخذ الكل يطريه والكل يعجب به وحضر سليم أفندي الخوري وابنته سلمى. ثم دخل ثابت حسين، فكان احتفاء سهيل به أعظم وملاطفته إياه أرق، ووقف ثابت طويل القامة يعلو رأسه الجميع، ويجتذب نظره الحاد أنظار الجميع. وقد بدا في بذلته الجديدة أحسن منظر أو أكثر هيبة مما عرفناه. فنظرت إليه سلمى بإعجاب ظاهر وتقدمت مع والدها نحوه.

وفي الساعة الرابعة والنصف حضر المحتفى به، فاستقبله سهيل في الباب، وأخذه إلى مكانه في الشرفة. وأخذ يقدم له المدعوين واحدًا واحدًا، يكلمهم ويستمع إلى تفاصيل قضيتهم وشكاياتهم المرة. وكان

يساعده في ذلك مكاتب التايمس في الشرق الأدنى. وهو رجل استعماري من الطراز الأول يرى أن الإنكليز هم نعمة الله في الشرق، ولولاهم لضربت فيه الفوضى أطنابها وأفنته الأمراض السارية.

ودخلت في هذه الأثناء ثريا من باب الحريم، فوجدت أم سهيل غارقة في عملها فتقدمت إليها وقبلت يدها وقالت:

- لقد طلب إلي سهيل الحضور فاعتذرت لصداع ألمّ بي. ولكني خشيت أن يغضب من إصراري على عدم الحضور فجئت.

- هذا هو الواجب يا ابنتي! يجب على السيدة أن تراعي مطالب خطيبها... اذهبي من هنا لئلا يزداد صداعك من هذه الضجة. لقد أعددت مقعدًا في النافذة المطلة على الشرفة وفتحتها وأرخيت الستائر. فيمكنك أن تقعدي هناك، ترين وتسمعين بدون أن يراك أحد.

فذهبت ثريا إلى الشرفة ولم يكن بها صداع، ولكنها رغبت عن الحضور عندما علمت من سهيل عَرَضًا أن ثابت أجاب دعوته. ألم تصمم على إبعاده عن فكرها، والابتعاد عن مقابلته أو رؤيته، اتباعًا لواجبها نحو سهيل! ولكن ماذا تفعل، وهذا سهيل نفسه يدفعها إلى ما لا يريد بدون علم منه.

وجاء دور ثابت لمحادثة الضيف. فتقدم به سهيل ممسكًا ذراعه وقال:

- هذا أنموذج جديد من شباننا. أحببت أن أقدمه كي تتمكن من الوقوف على أفكار جميع فئات البلاد.

فسلم الضيف وقال:

- إني أرى سيماء النجابة على وجهه. وإني أرجو أن يكون لي من محادثته فائدة كبرى.

فأخذ قلب ثريا يدق بسرعة وقوة. وقال ثابت للضيف:

- إني أُسرّ جدًا إذا تمكنت من مساعدتكم في الوقوف على حالة هذه البلاد.

- ما رأيك في أفضل الطرق لترقيتها؟

- أن تستقل استقلالًا تامًا.

فابتسم المساعد ازدراء. وأصلح الصحفي الكبير قعدته، استعدادًا لسماع أمور جديدة، لم يتح له سماعها منذ أن حلّ في البلاد محاطًا برجال الحكومة وأذنابهم فقال:

- أفتظن أن في البلاد استعدادًا كافيًا لحلّ ذاك العبء الثقيل؟

- إني متحقق من ذلك، ودليلي هو أن فلسطين لا تقل عن العراق إن لم تفُقها استعدادًا للاستقلال. وها إن حكومتكم تعترف في عصبة الأمم بأن العراق قد وصلت إلى درجة من الرقي يمكنها معها الاستقلال بشؤونها استقلالًا تامًا. وإني أؤكد لجنابكم بأن الكثيرين من الموظفين الإنكليز في البلاد إنما هم تلامذة لمرؤوسيهم من الوطنيين.

- ألا ترى أن الموظفين الوطنيين إذا استقلوا أفسدتهم الرشوة والاختلاس؟!

- لا، بل ربما كان الأمر بعكس ما تقول. فإن القضايا التي حكم فيها ضد الموظفين الأجانب بتهم الرشوة والاختلاس عددها أكثر من تلك التي حكم فيها ضد الموظفين الوطنيين.

- هذا غريب جدًا! ولكن لو قلت إلى أن الأوضاع السياسية الدولية لا تمكن من إنشاء حكومة مستقلة؟

- لا بل إني أرى أن هذه الأوضاع نفسها تفرض إقامة حكومة مستقلة في فلسطين. بدليل العهود المقطوعة للعرب وما يفرضه عهد عصبة الأمم.

- وماذا نصنع بتصريح بلفور؟

- يجب إلغاؤه لأنه مخالف لنقاط ولسون ولعهد عصبة الأمم وللعهود المقطوعة للعرب.

- إني لا أكتمك بأن في الأمر إبهامًا عامًا يجب أن يزول لصالح الجميع. ولكن عليكم أنتم أن تسعوا في إزالة هذا الإبهام بالطرق الأوروبية المعروفة.

واستمر الحديث على هذا النسق والضيف يبدي اهتمامًا لسماع هذه الأقوال، وكانت ثريا تسمع بجلاء صوت ثابت الرصين يشرح أفكاره بوضوح وثبات، يدلان على إيمان وثقة. وقد تورد وجهها وظهرت في عينيها علائم الإكبار.

ولما أتم ثابت حديثه وابتعد وتقدم سهيل وقال للضيف باسمًا:

- لقد قلت لك إن هذا الشاب من الطراز الجديد وأفكاره كما رأيت شديدة ولكنها هزيلة وغريبة. وهو قليل الاختبار لم يكد يترك باب الجامعة بعد.

فابتسم الصحافي ابتسامة مغتصبة ولم يجب. وذهب سهيل لتقديم آخرين، أما ثريا فقد هزت أعصابها كلمات سهيل الأخيرة. فأحّست بأن الدنيا تدور في رأسها حتى خشيت من السقوط مغشيًا عليها. ولكنها تجلّدت وسمعت الضيف يقول لمساعده:

- ماذا ترى؟

- لقد رأيت في هذا الشرق كثيرًا من المعتوهين أمثال ثابت. غير أنه لا يخلو من بعض العقلاء أمثال سهيل!

- أما أنا فأرى أن هذين الشابين لو كانا في لندن لحل ثابت إلى مجلس العوام على الأكتاف ولشنق سهيل في ترافلفار سكوير.

سمعت ثريا هذا الحكم الصريح وقد كادت أعصابها تتقطع من شدة التأثر وأحست برأسها يلتهب التهابًا... فهذا شاهد آخر على هذين الشابين وما انطوى عليه قلباهما من عاطفة وعقلاهما من فكر. وهذا عدو يشهد والفضل ما شهدت به الأعداء. وهذا صوت لم يكن في الحسبان يوحي إلى نفسها ما أحست به نحو كل منهما ويخبرها بصحة ذلك الشعور! نعم! لواحد منهما المشنقة والآخر لذروة المجد،

هـذا هـو القـول الصحيـح الصريـح. لقـد توسـل إليهـا سـهيل قبـل سـاعتين أن تحـضر فتكـون عـلى مقربـة مـن هـذا الإجـماع، فأبـت بعـد أن تحققـت مـن وجـود ثابـت فيـه، فـرارًا مـن رؤيتـه ورغبـة في نسـيانه. فلـما دفعهـا الشـعور بالواجـب إلى مراعـاة رغبتـه، دفعتهـا الأقـدار إلى الجلـوس في ذلـك المـكان بإيعـاز مـن والدتـه، لتسـمع ذلـك الخـزي منـه وعنـه!! أهـي العنايـة الإلهيـة تقودهـا. وهـي لا تعلـم، فتريهـا الهـوّة التـي وضعـت فيهـا والخطـر الـذي أحـاق بهـا؟!

انتبهـت ثريـا مـن تفكيرهـا إلى حركـة غـير عاديـة في القاعـة. فنظـرت مـن بـين السـتائر فـإذا الضيـف ينهـض مودعًـا وقـد تبعـه سـهيل. وبعـد برهـة عـاد مسـتصحبًا رجـلًا إنكليزيًـا آخـر، أقعـده مـكان السـير وايلـز وجلـس بجانبـه، ثـم أخـذ يحادثـه بصـوت واطـئ. فأحسـت ثريـا بميـل شـديد يدفعهـا بالرغـم عنهـا إلى اسـتماع حديثهـما فتقدمـت قليـلًا وأرهفـت سـمعها فـإذا بالرجـل يقـول:

- قدمـت لنـا الجامعـة ثلاثـة أسـماء. أحدهـا جميـل والثـاني إليـاس والثالـث ثابـت، وإن المديـر يرغـب في تعيـين اثنـين الواحـد منهـما مسـلم والثـاني مسـيحي وسأسـعى لتعيـين جميـل كـما ترغـب.

- أشكرك شكرًا جزيلًا!

- لا حاجة للشـكر... من هو ذلك الشـاب الواقف بجانب النافذة؟

- هذا ثابت حسين!

- هـذا هـو؟ إذا كان ذلـك فـأراني مضطـرًا إلى تغيـير فكـري في أمـر التعيـين. إن هــذا الشــاب ذو شــخصية مرغــوب فيهــا. ولا ريــب أن المديــر إذا رآه رغـب فيـه دون غـيره.

- لا. هـذا لـن يكون! يجب أن نتدبر في الأمر.

- لا أعلــم مــاذا نصنــع إلا أذا أمكننــا أن نعــين المســلمين، ونتغــاضى عــن إليــاس. ويمكننــي أن أحــاول تنفيــذ رغبتــك في تعيــين جميــل مــن هــذه الجمعــة.

- إن ذلـك لا يهمنـي مطلقًـا. إني أقـول لـك بصراحـة أن رغبتـي هـي في عـدم تعيـين ثابـت هـذا.

- ولم ذاك؟ يظهـر أنه صديقك!

- هنـاك أسـباب شـخصية لا مجـال لذكرهـا! إني أريـد هـذا منـك، اصنـع لي هـذا المعـروف ودعنـي أقـوم لـك بعـشرات الخدمـات بالمقابـل، إني أرجـوك.

- يوجـد طريقـة واحـدة، وهـي أن تمنـع مقابلتـه للمديـر، فأقابلـه أنـا ثـم أحـادث المديـر بشـأنه وأصرفـه عنـه وأحملـه عـلى تعيـين الآخريـن، ولكنـك بذلـك تضيـع علينـا شـخصية نافعـة.

- وأي شـخصية هـذه؟ إنـه لمجنـون! لـو سـمعت مـا قالـه مـن السـخافات للسـير وايلـز لعرفـت معدنـه.

- أيمكنك أن تقنعه أن يقابلني غدًا الساعة الثامنة صباحًا؟ لقد أرسلنا إلى الثلاثة أن يحضروا لمقابلة المدير منذ الساعة التاسعة بعد حضوره. فإذا جاء قبل أن يأتي المدير قابلته أنا وصرفته. ومتى حضر أطلب إليه غض النظر عنه.

- سأفعل ذلك الآن!

قام سهيل يترنح في مشيته الأنيقة يبتسم ابتسامة ملؤها السم الزعاف. ولما ابتعد قال مساعد المدير بصوت واطئ:

- يا لك من مخاتل حاذق!

أما ثريا فقد صعد الدم إلى رأسها، وأبرقت عيناها بنار الغضب الشديد، ونهضت كالمجنونة لا تلوي على شيء، وأخذت تسير داخل الغرفة حائرة، يكاد اليأس يخنقها. ثم عنّت لها فكرة، فنادت الخادم وطلبت إليه أن يذهب توًا إلى القاعة ويعود بسلمى، فلما حضرت هذه نظرت إلى صديقتها فقرأت في عينيها أمارات اليأس والقنوط فقالت:

- ما بالك مضطربة هكذا؟

- لا تسأليني الآن عن شيء! أريد أن أذهب وإياك إلى بيتكم دون الوالد، وأن تقولي لثابت أن يتبعنا.

- ولكن...

- ســأقول لــك كل شيء. لا تجادلينــي. اذهبــي فقــولي لثابــت مــا أردت وعــودي فخذينــي. لا تقــولي لســهيل إني هنــا.

- ولكـن كيف يمكنني...

- إني أكاد أموت يأسًـا فلا تزيدي ما بي بإصرارك.

فنظــرت ســلمى إلى صديقتهــا نظــرة شــفقة ورعــب، وخرجــت مسرعــة. وبعــد برهــة عــادت إليهــا فوجدتهــا بانتظارهــا في بــاب الحــرم فاســتقلتا ســيارة إلى بيــت ســليم الخــوري.

وتقــدم ثابــت باطمئنــان إلى ســهيل، فودعــه شــاكرًا واعــدًا إيــاه بــأن يســير طبــق نصحــه في مقابلــة مســاعد مديــر البنــك، ثــم أسرع ماشــيًا في أثــر الســيدتين. وأخــذ يفكــر فيــما عــسى أن تريــد منــه ثريــا في تلــك المقابلــة.

لقــد قــرر في نفســه أن يتحــاشى مقابلتهــا، فقــد أحــس أن نظراتهــا تخــترق قلبــه وصوتهــا يأخــذ لبــه. لا بــل تحقــق في مقابلتهــا الأخــيرة أنــه بوجودهــا يشــعر بتبــدل في نفســه أفقــده صلابــة إرادتــه، وقــوة شــخصيته، حتــى ليحــس أمامهــا أنــه كالطفــل. لهــذا عــزم عــلى أن يبتعــد عنهــا ويقصيهــا عــن فكــره. وهــا هــي ترســل في طلبــه سرًا.

فلــما اقــترب مــن البيــت ازداد خفقــان قلبــه سرعــة، وشــعر بالرقــة تمــلأ قلبــه والحنــان يطغــى عــلى نفســه... مــا هــذا؟ أيرجــع؟! ولكنهــا أرســلت في طلبــه! ألا يجيــب طلبهــا؟ ومــاذا تريــد منــه؟ وهــل مــن المــروءة أن يقابلهــا سرًا وهــو يشــعر نحوهــا بذلــك الشــعور الغريــب؟ وبعــد أن كان موضــع

إكرام خطيبها، وبعد أن تحقق من مساعدته في أمر توظيفه في البنك... لا إن ذهابه إليها وهو في تلك الحالة الشاذة خيانة للصداقة والكرم والشرف!

وقف بالقرب من باب البيت مترددًا. العاطفة تحدو به والواجب منعه. وتخيل سهيلًا قبل برهة يتقدم نحوه باسمًا باسطًا يد الصداقة والكرم، ساعيًا في مصلحته. فارتدت إليه صلابته وأحس بالقوة تعود إليه فأدار رأسه وقفل راجعًا وإذ بصوت يخترق أذنه:

- تفضل! نحن هنا في انتظارك!

التفت فإذا بسلمى في النافذة حائلة اللون، مبلبلة الفكر، تبتسم له ابتسامة حزن، وقد وقفت ثريا بجانبها وعلى محياها علائم اليأس والقنوط!

وقد توردت وجنتاها وغضت من بصرها، وبدا الاضطراب الشديد على جميع أعضائها، وذابت إرادته وغمره ذلك الشعور الجارف، فصعد الدم إلى رأسه، وأخذ العرق يتصبب من وجهه، ودخل البيت عابسًا مضطربًا وكأنه ألقى سلاحه وسلم نفسه!

دخل غرفة الاستقبال فإذا السيدتان واقفتان وعابستان، وقد خيم عليهما السكون، وظهرت على سلمى سيماء الحيرة. وأما ثريا فقد طغى على نفسها شعور هو مزيج من الغضب واليأس والحب. وامتلأ فمها الصغير كلامًا لم تطق أن تخرج منه كلمة واحدة! فوقف الثلاثة

واجمين، وكأنهم لم يكونوا على ميعاد، وأخيرًا استجمعت ثريا قواها وهمت بالكلام، فلم يخرج لها صوت وشرقت بالدمع. فأدارت رأسها صامتة وتقدمت نحو نافذة مفتوحة تنظر إلى الخارج والدمع يهطل من عينيها.

فنظرت سلمى إلى ثابت حائرة ذاهلة، فرأته يرنو إلى ثريا بلهفة وحزن لم تخفَ عنها بواعثه، وعلمت أن لا فائدة منه لجلاء الموقف. فأسرعت إلى صديقتها وطوقتها بذراعيها وقالت:

- ثريا! تكلمي... روحي عن نفسك، وخففي من كربك... لا تقتلي نفسك بالسكوت... افتحي لي قلبك، ودعيني أساعدك على التخلص من هذا الضيق الخانق!

- ليس لي ما أقول... أردت فقط أن أقول لثابت إنه إذا كان يهتم في التوظف في بنك الدومنيون فعليه مقابلة المدير لا المعاون.

فازداد اضطراب ثابت وأخذته الدهشة. وتحقق أن في الأمر مكيدة أرادت ثريا كشفها في هذه المقابلة. فقال يستدرجها:

- ولكني وعدت سهيلًا أن أقابل المعاون. فقد أكد لي على لسانه أن ذلك لصالحي.

- المعاون متواطئ على عدم تعيينك.

- متواطئ مع من؟

- مع... سهيل!

فقطّب ثابت حاجبيه وظهرت عليه سيماء الغضب والاحتقار، وبعد تفكير قال بصوت هادئ:

- إني لا أشك في صحة ما تقولين... ولكني أشك في أن يكون سهيل قد تقصد الإضرار بي. بعد أن أظهر لي كل هذه المودة!

- إن سهيلًا خادعك!

فعاد ثابت إلى تقطيبه وتفكيره، وصاحت سلمى مأخوذة بهذه المفاجأة:

- ثريا! ماذا تقولين! هل جننت!

- نعم! إني أكاد أجن مما رأيت وسمعت في حفلة اليوم.

- ماذا سمعت؟

- لا أرغب في إذاعة أسرار الناس، إلا بقدر ما يترتب عليها الإضرار بالآخرين... وقد ذكرت لثابت ما يختص به... فلم يبق إلا ما يختص بي.

- أتقولين أن خطيبك يتقصد الإضرار بك؟! هذا لا يمكن، أنتِ متهيجة لا تدرين ما تقولين!

- إني أرى استمرار صلتي به الضرر كله!

- ثريا لا تتهوري إلى هذا الحد... إن رابطتكما أبدية... وإذا بقيت على أفكارك هذه فإن الشقاء ملازمك إلى الأبد. ألم تعدي بتغيير خطتك هذه مع سهيل.

- نعم! وعدت وحاولت. فوجدت أن ذلك فوق طاقتي.

قالت ذاك وخرجت من القاعة، ودخلت غرفة أخرى لتخفي ما ألمّ بها، وجلست على مقعد فيها وأخذت تنتحب كالطفل. وهمّت سلمى باتباعها فأوقفها ثابت قائلًا:

- لا تضربي على حديد بارد، فالنفوس إذا تنافرت تعذر جمعها على صعيد واحد، اتركيها الآن تعالج نفسها بالدموع. وانتهزي فرصة أوفق من هذه تردها عن أفكارها هذه.

- ثابت! أريد أن أخاطبك بصراحة، فاعذرني على حريتي، أنت أخي وإن قلبي يكاد يتفطر عليها! انظر إليها ألا تراها تذوب حزنًا وبأسًا! وهل كانت هكذا يوم عودتنا من بيروت... ويلي لقد كان ذلك بسببي! فلولاي لما رأتك في حياتها، ولو لم ترك لما نظرت إلى سهيل بهذه العين... إن المصيبة أتت من مقايسة سهيل وأفكاره وأخلاقه بك وبأفكارك وأخلاقك... وكلما قايست ارتفعت أنت وسقط هو... اسمح لي! لا أدري ماذا أقول! إنها... إنها تحبك!

قالت هذه الكلمة وغطت وجهها بكفيها وأخذت تنتحب كالطفل.

انتفض ثابت عند سماع هذه الكلمة، وتحقق مما كان يشعر به، ويقصيه عن فكره، من أن قلبيهما قد ارتبطا من النظرة الأولى... فويل له من شقي! وويل لها من ضحية! هبط مكانه ووضع الآخر وجهه بين كفيه، ولأول مرة في حياتها رأت سلمى دموعه! فجلست بجانبه كما تجلس الأخت بجانب أخيها تواسي جراحه. وقالت:

- ثابت! ثابت! أين أنت؟! أين قوتك وإرادتك؟ ألا ترى موضع الخطر؟! ألا ترى وجه المستحيل!!

- أرى كل ذلك... وقد أجهدت نفسي في الابتعاد. ولكن ما العمل وهذه الظروف تعاكس. قومي لها! لا تهتمي فيّ، فلن أكون إلا كما تريدين... يجب أن نتخلص مما نحن فيه... يجب، أن نزيل هذه الحالة الشاذة.. قومي لها!

فنهضت سلمى حائرة مبلبلة الفكر تريد ثريا، فإذا بها واقفة قبالهما وقد استندت على حائط الباب، وجف الدمع من مآقيها، وتألق ناظراها بالحب الصادق. وكانت قد سمعت ما دار بينهما من حديث، فتحققت من حب ثابت.. وسمو منزلتها في عينيه. فشعرت باشتداد في عزيمتها وراحة في نفسها وظهرت مكانها كالملاك جمالًا ورقة. وذهلت سلمى من منظرها ذاك فوقفت لا تبدي حراكًا وتقدمت ثريا من

ثابـت، وهـو مـا يـزال واضعًـا رأسـه بـين يديـه يـذرف الدمـع السـخين. وقالـت بصـوت هـادئ مطمـئن:

- وقبـل أن تتخلـص مـن هـذه الحالـة الشـاذة وحـدك، إلا تدعنـي أسـعى لأشـق طريقًـا لخلاصنـا معًـا؟

فرفـع ثابـت رأسـه مبهوتًـا وقـد سرى في جسـمه تيـار كهربـائي هـزّ أعصابـه وأثـار أشـجانه. فوقـف مبهوتًـا وخـرج مـن البيـت صامتًـا لا يلـوي عـلى شيء.

جهود ضائعة

وعلـم سـهيل مـن والدتـه بعـد الحفلـة بقـدوم خطيبتـه طوعًـا لأمـره. فشـعر بلـذة الانتصـار، وظـنّ أن خطتـه الجديـدة في مناوأتهـا بـدل مداهنتهـا قـد بـدأت تـؤتي أكلهـا! فثبـت في فكـره مـن أنـه يجـب أن يعوّدهـا عـلى طاعتـه، ويروّضهـا عـلى اتبـاع أوامـره. ومـاذا يهـمّ في تنفيـذ رغباتـه لـو احتملـت تعبًـا أو صداعًـا.. ألم تصبـح ملـك يمينـه؟! أمـا وقـد فـاز، فيجـب أن يذيقهـا حـلاوة رضـاه تشـجيعًا لهـا، واعترافًـا منـه بأصالـة رأيهـا في إطاعتـه، فذهـب لزيارتهـا بعـد العشـاء يحمـل هديـة أنيقـة. وقابلتـه مـع والديهـا وأخـذ يغـدق عليهـا شـكره لحضورهـا وجلسـت هـي جامـدة تنظـر إليـه بـدم بـارد لا تـدري مـاذا تصنـع وسـألها:

- كيف وجدت الحفلة؟

- على أحسـن ما يكون من الترتيب والأبهة.

- وهل سررت مما رأيت؟

فأجابـت ببرودة وتؤدة ورباطة جأش غريبة:

- وكيف أُسَرّ وقد سـمعت لأول مرة في حياتي قاضيًا ينطق بحكم الإعدام؟

- كيـف هذا؟! لم أفهم ما تقصدين!

فأجابـت وقد علا وجههـا الاصفرار، وزايلها ذلك الهدوء الغريب:

- لقد سـمعت المحتفى بـه يحكم على المحتفي بالإعدام!

فذهـل سـهيل، وخـشي أن تكـون قـد سـمعت مـا دار بينـه وبـين السـير وايلـز عـن ثابـت ونظراتـه السياسـية فقـال:

- ولكـن المحتفـي كان في موقف المكرم لا في موقف المتهم.

- أمـا في الظاهـر فكـما تقـول. وأمـا في الباطـن فـلا. ولقـد حكمـت عليـه محكمـة الباطـن لا الظاهـر.

- لا أفهـم مـا تقولـين، إلا أن تكـوني قـد جلسـت تتسـمعين أحاديـث النـاس فسـمعتِ خطـأ.

- لا بل سـمعت ورأيت صدفة حقائق ناصعة!

فاضطـرب مجـدي بك وتحقق أن في الأمـر مصيبة جديدة فقال مقاطعًا:

- لا أفهـم مـاذا تقـولان، ومهـما كان الأمـر فـلا أرى موجبًـا لهـذه المراشـقة بالـكلام المعمـي بينكـما. صارحانـا بمـا هنالـك علّنـا نزيـل ريبًـا أو نصلـح خطـأ.

- لسـت يا والدي بالنمّامة، ولا أرغب في إشـاعة أقوال سـمعتها عرضًا.

فقال سـهيل مضطربًا مأخوذًا:

- الأمـر هـيّن يـا سـيدي. لقـد قدمـت صديقنـا القديـم ثابـت إلى السـير وايلـز، فأخـذ يهـذر لـه بفلسـفة وطنيـة لم أفهمهـا أنـا أيضًـا. فاعتـذرت عنـه للسـير وايلـز بأنـه مـا يـزال قليـل الاختبـار. والظاهـر أن ثريـا سـمعت ذلـك وعدتـه عـليّ ذنبًـا لا يغتفـر.

فأجابت ثريا بنزق:

- أما أنك لا تفهم تلك الفلسفة فذاك لا يعنيني. وأما أن السير وايلز لم يفهمها فهذا خطأ. لأنه فهمها جيدًا، وكانت في البيّنة التي دفعته على مسمع مني إلى الحكم عليك!

صعق سهيل. واستشاط غضبًا وقال:

- أرى من العبث البحث معك في أي أمر يكون لثابت فيه أي علاقة! وأظن أن من حقي أن أرجوك بأن تمتنعي عن ذكره بتاتًا.

- أنا لم أذكر ثابتًا. ولم أدعه لحفلتك. لا بل أحسست بشعورك هذا نحوه فعزمت أن أتحاشى ذكره ورؤيته. وقد ادعيت الصداع عندما علمت أنك دعوته إلى الحفلة. فلما غضبت من رفضي الحضور ذهبت مرضاة لك، فأراد الله أن أسمع ما سمعت. وكفى!

قالت هذا ونهضت مضطربة إلى غرفتها فتبعتها أمها حزينة كاسفة البال. أما الوالد فقد أخذ في تهدئة سهيل والتخفيف من حدته، والرجاء إليه أن يترك أمر تغيير أفكارها تلك إليه. ثم ودع سهيلًا ودخل مسرعًا إلى غرفة ابنته. فوجدها مستلقية على فراشها محمرة العينين صفراء الوجه، تسكب الدمع السخين ووالدتها بجانبها وهما صامتتان. فأراد أن يتكلم فأشارت إليه زوجته بالسكوت فخرج حزينًا!

وبعد ساعة من الزمن عاد يحمل كتابًا، وكان دمعها قد جف وعاودها الهدوء وجلست أمها بجانبها تعبث بشعرها الأسود اللامع،

وهـي مسـتلقية عـلى سريـر نحـاسي جميـل قـد فـرش بأجمـل الأقمشـة المزركشـة والوسـائد المنمقـة. فوضـع الكتـاب أمامهـا عـلى الوسـادة ورجـع حزينًـا، ظاهـر الانفعـال، كسـير الخاطـر، ففهمـت ثريـا مـا أراد. فتناولـت الكتـاب وفتحـت صفحـة كان قـد طـوى طرفهـا. وكان قـد عودهـا فيـما سـبق، أنـه إذا مـا أراد مداعبتهـا أو اسـترضاءها في أمـر، عمـد إلى دواويـن أشـعار العـرب، وكان بهـا خبـيرًا، فاختـار منهـا شـعرًا ينطـوي عـلى المعنـى الـذي يريـده، فيكتبـه لهـا في رقعـة يلقيهـا عليهـا، أو يطـوي طـرف الصفحـة التـي جـاء فيهـا ذلـك الشـعر ويقـدم لهـا الكتـاب، فتفتـح تلـك الصفحـة، وتقـرأ، وتفهـم مـا يريـد بلغـة شـعرية رقيقـة. فيسـتهويها المعنـى اللطيـف أو النكتـة الظريفـة، فتطـرب وتضحـك وتنـسى مـا بهـا. ثـم تجيبـه بشـعر آخـر تنتقيـه مـن دواويـن الشـعراء بنفـس الطريقـة.

فلـما فتحت الصفحة المطوية قرأت فيها أبيات بشـار:

إذا كنـت في كل الأمـور معاتبًـا   صديقـك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فعـش واحـدًا أوصـل أخـاك فإنه   مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشـاربه

وفي الصباح نهض مجدي بك متأخرًا فوجد كتابًا بجانبه قد طوت ثريا إحدى صفحاته. ففتح تلك الصفحة وقرأ فيها بيتي عمر بن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلًا عمرك الله كيف يلتقيان

في شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يماني

قرأ هذا واجمًا مذهولًا. ثم اغرورقت عيناه بالدموع وأغلق الكتاب وألقى برأسه ثانية على وسادته وأخذ ينتحب. وبعد برهة نهض منقبض القلب مثقل الفكر، فجلس إلى مكتبه وهو ما يزال في قميص النوم وأخذ يفكر... لقد فتح عينيه الآن للنور... ولكن بعد فوات الوقت! بأي حق ولأي سبب قدم ابنته كالسلعة للمشتري الأول، بدون أن تراه وتعرف أخلاقه وأفكاره، ويكون لها الرأي الأول في قبوله بعلالها. ألم يعلم أن هذا ما أوجبه الشرع؟! أما عرف أن الأذواق والطبائع والأفكار تختلف بين الأخ وأخيه، والأب وابنه. فإذا كان قد رأى هو في سهيل كل مؤهلات الزوج الصالح، فهل كان ذلك كافيًا لإرضاء ابنته، وكافلًا لموافقة ذوقها وأفكارها وطبائعها، ألم يعلم أن «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»! ويله، لم يرزقه الله إلا هذه الفتاة، تمت في محبته، وترعرعت في حنانه، وتقلبت على يديه، من طفلة تبعث إلى قلبه نور الطهر من نظراتها المتألقة، إلى فتاة تضيء قلبه بجمالها، إلى شابة تزين حياته بأفكارها وأحاديثها، وتحبب إليه الدنيا بآمالها! وها هو اليوم يحطم تلك الآمال بيده،

ويقـضي عـلى تلـك الأفـكار بصنعـه، ويشـوّه ذاك الجـمال بسرعـة!

عـاد الدمـع ينهمـر مـن عينيـه سـخينًا. وعـاد إلى تفكـيره مـن وجهـة أخـرى. يجـب أن ينقـذ ابنتـه مـن ورطـة أرداهـا فيهـا بيديـه مهـما كان الأمـر. وإن أخفـق؟! وإن أخفـق فليكـن هـو ضحيـة عملـه! إنـه يمـوت حزنًـا وندامـة وهـذا جـزاء مـا صنعـت يـداه! ولكـن يجـب أن يسـير في الأمـر بتـؤدة، فيعـود لإقناعهـا بسـهيل ويسـعى لديـه لفسـخ عقـد الـزواج، فـإن أخفـق فـلا يكـون قـد ضربهـا ضربـة أخـرى باليـأس بعـد الأمـل. نعـم! ليتخـذ لنفسـه خطتـان الواحـدة في إقنـاع ابنتـه بالـرضى والثانيـة في إقنـاع سـهيل بقطـع العلاقـة.

نهـض إلى خزانـة كتبـه فأخـذ منهـا كتابًـا قلـب صفحاتـه ثـم طـوى طـرف إحداهـا ووضعـه عـلى مكتبـة ابنتـه في غرفتهـا. وكانـت هـي إذ ذاك تتلهـى بالجنينـة تسـقي أزهارهـا. فلـما عـادت رأت الكتـاب ففتحتـه وقـرأت لقيـس:

فـلا تبكـين في إثـر شيء ندامـة إذا نزعتـه من يديك النوازع

فليس لأمر حاول الله جمعه مشـت ولا ما فرق الله جامع

فجمـدت مكانهـا لا تبـدي حـراكًا. أمـا الوالـد فقـد عـاد إلى مكتبـه وكتـب إلى سـهيل رسـالة رقيقـة أوقفـه فيهـا عـلى حقيقـة الأمـر وأبـان لـه بوضـوح أن ثريـا لا يمكـن أن تأتلـف بـه لتبايـنٍ في أفكارهـما، وتوسـل إليـه أن يتكـرم بفسـخ العقـد رحمـة لمسـتقبلهما أو أن يتناسـاها ويبتعـد عنهـا مـدة معينـة

على الأقل، كي يتمكن هو بمساعدة أمها من تمهيد السبل وإعادة المياه إلى مجاريها. ولم يرغب في الإصرار على فسخ العقد خشية أن يوقظ روح الإصرار في سهيل. أرسل الرسالة مع خادمه لإيصالها باليد وجلس ينتظر الجواب بين الرجاء والقنوط. وعند الظهر رجع الخادم يحمل الجواب التالي:

«سيدي العم المحترم،

أشكرك على كتابك اللطيف الصريح، إن حبي العظيم لثريا يمنع مني الرضاء ما طلبت. أنا مستعد لكل تضحية في سبيل إرضائها وإسعادها. وإني أوافق على أي تدبير ترونه مناسبًا لإعادة المياه إلى مجاريها. ولن تروني إلا عند الطلب راجيًا أن تتكرموا علي بنبذة من أخباركم الفينة بعد الفينة. أقبّل أيديكما. ابنكم المطيع. سهيل».

قرأ الوالد المكلوم هذا مترنحًا من الحزن... وهذا ما كان ينتظر. ولهذا رأى أن يقطع الطريق على ابنته بأن يجعلها تشعر أنها أمام أمر واقع لا مفر منه. ومن هو ذلك المعتوه الذي يحصل على مثل ثريا ثم يفلتها من يديه! لقد عرف سهيلًا: إنه أحذق من أن يفعل ذلك!

وإذن فلا علاج لهذه المصيبة إلا بالتؤدة. لعل الزمن وتوسلاته الوالدية يشفعان لسهيل فترضى به، أو ينساها هو فتتخلص منه.

اليوم الرَّهيب

جلس مجدي بك وراء مكتبه حائل اللون، بادي الاضطراب، كاسف البال، يحس بالحزن يقبض على قلبه بيد من حديد. وجلست ثريا بجانبه وزوجته بالجانب الآخر. وقال بعد صمت طويل:

- بنيتي ثريا! لقد أجزل الله علي من نعمه، ثم حباني بإحسانه: فألهم والدي بدون علم مني ولا اختيار، أن يخطب لي والدتك، ولم تعرفني ولا عرفتها ولا رأتني ولا رأيتها. فشاءت الأقدار أن تكون طبق رغبتي، وأن أكون وفق آمالها. فأثمر اقتراننا حُبًّا. وأثمر حبنا ابنة وحيدة، كانت محط آمالنا وموضع الحنان منا. إن ضحكت بسمت لنا الحياة، وإن بكت خيمت علينا ظلمة الكآبة! وكان همنا أن نمهد لها سبل السعادة. وغايتنا أن نراها تتقلب في أحضان النعيم. فلما أينعت أخذنا نقلب الناس علّنا نقع على شاب نأتمنه عليها، ونستوثق من سعادتها به. فوقعنا على سهيل. شاب ذكي الفؤاد جميل الطاعة، مفتوح اليد. رأيناه يقبل علينا في طلبك قبل أن نقبل عليه. حسبنا أن العناية الإلهية هي التي دفعت به إلينا اليوم، كما هيّأت لقاءنا من قبل. فعقدنا لكما وأنت مستسلمة مستكينة لما نصنع برًّا بنا وطوعًا لنا! وها نحن اليوم نتحقق، وجوانحنا تضطرم بالحسرات، أنا أخطأنا المرمى مع أننا سددنا للإصابة! وأننا سرنا في الطريق السوي الذي سار عليه آباؤنا فإذا به قد غيرته الأيام بدون علمنا، واختلفت الوجهة وضللنا. ولا راد لأمر الله. ولقد رأيت من واجبي نحوك أن أكتب إليه وأصارحه في الأمر. وأطلب إليه فسخ العقد بالتراضي فأجابني بالرفض. على أنه

أبـدى برقـة وأدب، موافقتـه عـلى كل أمـر خـلاف هـذا يوصلنـا إلى مـا نحـب! فـماذا تريـن؟

فأجابت بصوت حزين:

- إني عـلى يقـين مـن أنكـما قمتـما لي بـكل مـا يجـب، وإني أشـعر أن القصـور منـي والذنـب ذنبـي! ولكـن مـا حيلتـي في أن أجـده عـلى نقيـض مـا أنشـأتماني عليـه مـن مبـادئ وأفـكار وعوائـد. مـا حيلتـي إذا كانـت الظـروف والصـدف تهيّـئ لي أن أرى مسـاوئه دون محاسـنه! إن زواجنـا شـقاء لكلينـا معًـا. فـلا يمكـن أن يحبنـي ولا يمكننـي أن أحبـه مـن قلبـي! ومـا دام الأمـر كذلـك، ومـا دام يرفـض فسـخ العقـد، فسـأبقى لكـما دائمًـا. إن كنتـما لا تـزالان تكنّـان لي في قلبيكـما مـا علمـت!

قالت هذا وشرقت بالدمع. فجذب والدها رأسـها إلى صدره وقال:

- أنـتِ دائمًـا لنـا وبـين جوانحنـا! ولكـن ألا تريـن أن نسـافر مـن هنـا مـدة مـن الزمـن، عَلّـكِ في الاغـتراب تنسـين المسـاوئ وتذكريـن الحسـنات؟

- إني أوافقـك عـلى السـفر ليـس لهـذا السـبب نفسـه بـل لنقيضـه! فلعـل سـهيلًا يقـع عـلى مـن هـي خـير منـي في غيبتـي!

- ومـن يـدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا!

- ومتى نسـافر؟ وإلى أين؟

- يجب أولًا أن أتدبر في شؤوني مع المستأجرين. ولا بدّ لي من شهر لذلك على الأقل! وأما الوجهة فلكما أن تختارا بين لبنان والأستانة.

- إن لي في لبنان صديقات ومعارف. والجبل يوافق صحتك!

- نسافر إلى الجبل إذًا كما ترغبين.

* * *

سافر سليم أفندي الخوري صباح يوم الجمعة المواقع في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٩ إلى حيفا لإنجاز أعمال خاصة. فودعته ابنته سلمى ثم رجعت إلى الجنينة تجمع باقة من الزهر للمائدة. فقد دعت ثريا لتناول طعام الغداء معها قبل ارتحالها إلى لبنان. وإذا بأم ثابت تتقدم نحوها وعلى فمها ابتسامة الإخلاص والرضى وقالت:

- أنا ذاهبة إلى يافا لأقيم يومين عند أختي، وسأمكث هناك حتى صباح الإثنين وسيأتي ثابت صباح الأحد، فأرجوك أن تحضري معه ونرجع كلنا سوية... لا ترفضي... لقد قلت لثابت أن يتناول طعام الغداء عندكم لتتفقا على موعد السفر. فهل تقبلين رجائي؟

- بكل سرور، وهل يمكنني أن أرفض لك طلبًا؟ ولكن ذلك موقوف على رضاء الوالد.

- بالطبع! أين هو؟

- ذهب إلى حيفا، وسيعود مساء.

- سيرجوه ثابت عني بالسماح لك بهذه الفسحة الصغيرة. دعيني أقبلك. وداعًا...

وجلست سلمى على مقعد خشبي وسط الجنينة، ووضعت سلة الزهور أمامها وأخذت تنمق باقة أنيقة وتنشد الأنشودة الوطنية:

«لك يا أرض الشام مهبط الوحي القديم من فؤاد مستهام خالص الحب الأكيد».. ولكنها توقفت فجأة عن الإنشاد مذعورة... وسقطت الزهور من يديها... ويحها ما أكثر نسيانها! وهل يصح لها أن تجمع في بيتها بين ثابت وثريا بعد أن علمت بحبهما المتأجج العقيم؟ وهل يرضى والدها بذلك؟! وهل يروق هذا الخطيب ثريا ووالديها؟! أيكفي أن تقول إن الصدف جمعتهما بدون سابق علم منهما؟ ومن يصدق هذا؟! والناس يتسقطون المثالب ولا يحكمون إلا على الظاهر! فهل تكتب لثابت كلمة صريحة، وتعتذر إليه عن عدم إمكانها قبوله على مائدتها لوجود ثريا؟! نعم! إنه واسع الخلق كبير العقل وسوف يعذرها بل ويشكرها على عملها هذا! ألم يقل لها إن هذا الحب يجب أن يزول؟ نعم! يجب أن يحكم العقل لا العاطفة! فلتسرع إذن في كتابة الرسالة...

وكتبت رسالة لطيفة لثابت اعتذرت فيها عن عدم إمكانها قبوله على الغداء، ووعدته بالسفر معه إلى يافا يوم الأحد. وقامت مضطربة البال لإرسالها مع الخادم... وإذ بثريا تقف أمامها فإذا هي كالزهرة الملوحة بريح السموم وهي ما تزال في ربيع الحياة... عينان أضناهما السهر

والدمـوع، ولـون باهـت خلفـه الحـب اليائـس عـلى محياهـا الجميـل، وابتسـامة تنتـزع مـن قلـب حزيـن، تبـدو ثـم تختفـي أمـام غـارات الشـعور بالقنـوط والخيبـة! فسـألتها سـلمى مبهوتـة:

- ثريـا حبيبتـي! مـاذا دهـاك؟! لقـد فعـل بـك هـذا الشـهر مـا لا تفعـل السـنون!

- وعـزائي بـأن تفعـل بي الشـهور فعـل السـنين... تعـالي نجلـس. إني تعبـة منهوكـة. مـا هـذه الرسـالة التـي بيـدك؟ أتخفينهـا عنـي؟! آه فهمـت لقـد وقعـتِ في الفـخ... هـذا جـزاؤك عـلى الاسـتهزاء بي... وهـل هـي الرسـالة الأولى في الحـب الجديـد.. نعـم! هـذه حمـرة الحـب تعلـو وجهـك! تعـالي كلمينـي عـن حبـك لعلـك أحسـن منـي حظًـا... أنـا... أنـا...

وسالت دموعها مدرارًا..

- ثريـا حبيبتـي! أنـتِ مجنونـة.. وهـل بـين البنـات مـن هـي أحسـن منـك حظًـا! جـمالًا، وثـروة، وذكاء، وحبًّـا!

- نعم، وحب عقيم!

- لقـد عنيت حبّ والديك.

- دعينـي مـن حبـي. وكلمينـي عـن حبـك! دعينـي أدخـل إلى قلبـي المظلـم قبسًـا مـن نـور الـسرور... أريـد أن أعـرف مـن هـو صاحـب هـذه الرسـالة... أتكتمـين عنـي أنـا؟ وقـد كتمـت حبـي عـن كل إنسـان إلا عنـك!

- يا ربي! إذا كانت الظروف تعاكس إلى هذا الحد فماذا يصنع الإنسان؟ خذي واقرئي! ولكن حكّمي عقلك لا عواطفك!

قرأت ثريا العنوان فتورّد وجهها واهتزت أعصابها ولمعت عيناها وفضّت الغلاف بيد راجفة وقرأت الرسالة. ثم نظرت إلى سلمى نظرة عتب وحزن وقالت:

- وتريدين أن تحرميني الوداع الأخير؟! يا قاسية!!

- ولكن هل يفيد الوداع؟

- وهل تفيد جرعة من الماء لمَن يموت عطشًا!

* * *

وفي الظهر قرع ثابت الباب ففتحت له سلمى وكانت قد صرفت الخادم حرصًا على كتمان هذه الحادثة. وظهرت له في أشد حالات الاضطراب والحيرة وقالت همسًا:

- اسمع! كن لطيفًا! لا تكن قاسيًا! لقد جمعتكما الصُّدَف، وليس لي في ذلك يد، إنها مسافرة بعد يومين وقد جاءت تودعني الوداع الأخير و...

- ومن هي؟ من هي!

- ثريا! ثريا! قف لا ترجع! لقد علمت بقدومك صدفة، لا تقتلها بهذا الصدود، لا تكسر قلبها، قابلها للمرة الأخيرة! ولنبقِ هذا سرًّا بيننا!

كانت سلمى تتكلم بلهفة واضطراب. أما هو فقد وقف مبهوتًا حائرًا، متصبب العرق، مرتجف الأطراف. وبدلًا من أن يتقدم أو يتأخر هبط على مقعد في الممر وأخذ ينظر إليها وعلى وجهه أمارات الذهول...

وسمع حركة خفيفة عند باب قاعة الاستقبال فالتفت فرأى ثريا أمامه فنهض مسرعًا ومد يده المرتجفة مصافحًا. فقالت متلعثمة:

- نحن مسافرون بعد غد.. وربما لا نعود!! أتودّ أن تفرّ فلا تودعنا الوداع الأخير!

فأجاب متأثرًا بشدة المفاجأة:

- إن الله أرحم من أن يقدر هذا.

وظلت يدها في يده بدون شعور منه. فوقفا متصافحيْن يشدّ كل منهما بيد الآخر. وقد شعرا بالحب يسيل فيما بينهما على ذلك الجسر الذي أنشآه بيديهما، وهطلت عيناها بالدمع السخين... أما سلمى فقد أدارت رأسها إلى زاوية وغطت وجهها بيديها وأخذت تنتحب.

مرت على هؤلاء الثلاثة من أبناء هذا العالم العذب مدة طويلة وهم وقوف في الممر، كانوا صامتين والهوى يتكلم! وإذا بضجة تنام إلى هذا الوجود. وإذا بأزيز الرصاص يغشاهم من جميع الأطراف... ما هذا؟ اسمعوا! لقد وقعت الواقعة! واشتبك الأعداء! النار والبارود إذا وضعا في برميل واحد فمن يمنع وقوع الانفجار؟ هذا هو تصريح بلفور!

انتفض ثابت، وامّحت الرقة من عينيه، وزال انحناء الحزن من ظهره، واكتسى وجهه بسيماء الجد والشجاعة والأنفة. وصاح:

- لقد اشتبكنا مع الأعداء! أنا ذاهب. وداعًا.. وداعًا سلمى! عليكِ بأمي إن لم أرجع!

فصاحت سلمى مذهولة:

- إلى أين؟! لا لا يمكن أن تذهب! أنت غير مسلّح! اسمع أزيز الرصاص! تذكر أمك... أنت وحيدها! لن أدعك تذهب! ثريا ساعديني!

- سلمى أرجوك! لا تضعفي هكذا! أين شجاعتك! أترضيْنَ بأن أكون رعديدًا. أتقع الواقعة فأختبئ بين النساء؟

وصاحت ثريا وتألقت عيناها بالشجاعة الجنونية:

- اتركيه! ليذهب! اذهب! اذهب... ونحن هنا نتبعه!

وانطلق ثابت نحو الباب الخارجي كالسهم، ولم يكد يخطو عتبة الباب حتى زلت قدمه وهوى بشدة وسط الشارع. فأسرعت الفتاتان إليه فإذا به قد ذهل وكاد يفقد شعوره من شدة الوقعة. وأخذ الدم يسيل بكثرة من رأسه وأنفه ويديه.. ورفعت ثريا رأسه وأخذت سلمى ترش وجهه بالماء. ثم أخذتا تحاولان قطع تدفق الدم من رأسه وأنفه ولما صحا من شدة الوقعة وعاوده شعوره! أومأ إليهما فساعدتاه على النهوض وطلب أن يرجعا به إلى بيته ففعلتا. ولما دخلوا البيت شعرت ثريا بهزة عنيفة تتناولها من الرأس إلى القدم واستلقى هو على مقعد

في البهـو الواسـع الهـادئ، جلسـتا بالقـرب منـه تسـاعدانه عـلى الاستنشـاق بالمـاء البـارد لقطـع النزيـف مـن أنفـه. ثـم أخذتـا بمعالجـة جـروح يديـه.

وبعـد أن اسـتراح قليـلًا نهـض فبـدّل ثيابـه الملطخـة بالـدم وهـمّ بالخـروج ثانيـة فلحظـت ثريـا ارتخـاء أعضائـه وشـدة اصفـراره لكـثرة مـا خـسر مـن الـدم فقالـت:

- لا! لا، الجنـدي الجريـح لا يدخـل المعركـة حتـى يشـفى. إن هـذه المعركـة لـن تنتهـي اليـوم فلـك غـدًا تقـدم فيـه واجبـك...

- لا لا يمكننـي القعـود هنـا أسـتمع إلى هـذه الأصـوات بـدم بـارد. أرجـوك دعينـي.

- لا يمكـن أن أتـركك تذهب وأنت في هذه الحالة من الضعف!

وقعـد الثلاثة يتجادلون، فهـو يهمّ بالخروج وهما تمنعانه.

وبينـما هـم في هـذه الحالـة إذ بسـيارة تقـف أمـام بيـت سـليم، فأطلـت سـلمى مـن النافـذة فـرأت مجـدي بـك يقـرع البـاب بشـدة فصاحـت:

- لقـد فُضِحنا! هذا والدك يفتّش عنك!

فأجابت ثريا مضطربة:

- انـزلي وقـولي إني رجعـت إلى البيـت قبـل برهـة وجيـزة مـن داخـل المدينـة. ومتـى رجـع أذهـب أنـا. أرجـوك لا تدعيـه يلاحـظ شـيئًا! لا أريـد أن أكـسر

قلبه في الساعة الأخيرة! إنه شديد الإحساس وسقيم الجسم! لنَطوِ هذا الحادث إلى الأبد، اذهبي! لقد كاد يكسر الباب.

خرجت سلمى مسرعة والرعب يسود حركاتها. فقابلها مجدي بك مخطوف اللون مطربًا وصاح:

- أين هي؟ أين ابنتي؟

- لقد... ذهبت قبل برهة... عن طريق المدينة... قيل لنا إنها أكثر أمانًا، ذهبت ماشية.. نعم ماشية.. لا تخف يا عمي. لقد أرسلت معها من يحافظ عليها!

- أتظنين أني ألاقيها عند باب الخليل لو ذهبت الآن بالسيارة؟

- نعم! أظن ذلك! انتظرها هناك حتى تأتي. كيف ترى الحالة.

- الدماء تسيل في كل مكان ولكن الحالة أهدأ من قبل في البلدة أما الخارج فهو شعلة نار وربما حصلت هجمات في الليل! هل خفتما كثيرًا؟

- لا! إننا بعيدون قليلًا.

- أين الوالد؟ لعلّه لم يخف كثيرًا!

- ذهب إلى حيفا في الصباح ولم يعد بعد.

- وبقيتِ هنا وحدك؟ هذا لا يجوز! هيا معي إلى البيت.

- لا! أرجـوك! لا يمكـن أن أتـرك البيت. فأنا عند الجيران ولا خوف علي.

- أسـتودعك اللـه إذن. لا تخرجـي مطلقًـا! ولكـن مـا هـذا الـدم! أحـدث شيء هنـا؟

- لا هـذا خادمنـا حصل له نزيف من أنفه!

- أسـتودعك الله! وطار في سـيارته ينتظر ابنته عند باب الخليل.

وعـادت سـلمى إلى بيـت ثابـت فوجدتهـما ينتظرانهـا عنـد النافـذة المطلـة عـلى بيتهـا وقـد سـمعا مـا دار بينهـا وبـين مجـدي بـك. وقالـت لهـا ثريـا:

- أتظنين أنه لاحظ شـيئًا؟

- لا مطلقًـا. هيا نذهب الآن.

ونهض ثابت وقال:

- لا بد لي من الذهاب معكما! إني أشـعر بشيء من القوة.

- عـلى شرط ألا تتهيج في الطريق وتتركنا!

- لا! هيا نسرع. تقدماني وأنا أسـير وراءكما.

خرج الثلاثة مسرعين وقد سـمعوا السـاعة تدق أربعًا فقالت سـلمى:

- ماذا! هذه السـاعة الرابعة ولم نذق طعامًا.

- مـا لنا وللطعام الآن هيا أسرعي!

سهيل يعمل

استقل سهيل سيارته وهبط إلى المدينة في اليوم السادس من اشتعال الثورة. وقد عادت إلى البلدة بعض سكينتها في النهار، وأخذ بعض ذوي الأعمال يزاولون أشغالهم. وفتحت أبواب المصارف والمكاتب، وكان عليه أن ينجز عملًا ماليًا في بنك الدومنيون قد فات وقته، فتوجه إليه. وبينما هو في ردهة البنك أبصر ثابتًا يعمل وراء مكتبه، معصوب الرأس بادي الاصفرار. فتوقف فجأة ينظر إليه بكره شديد وقد بدرت له فكرة هائلة... هذا هو الفتى الذي صارعه فصرعه، هذا هو الذي هاجمه بدون سبب، وخاصمه بدون عداء، هذا هو عدوه اليوم وغدًا فليستأصله من جذوره، وليقضي عليه في مهده! هذه النيابة العامة تزجّ الشبان في السجن على أقل التُّهَم! وهذه جروح ثابت تدل على اشتراكه في القتال! ألا يمكن أن يوجه إليه تهمة يقويها بماله، ويغذيها بتدابيره! ولكن مَن لها؟ ومَن يدبر هذا الأمر؟ يجب أن يكون المتهم يهوديًا... ها! لقد وجدته... الياهو بسالنى! شريكه اليهودي القديم، لقد قيل له إن أحد أقاربه قد قتل في مستعمرة الأكراج بالمصرارة.

أنجز مهمته في المصرف وتوجه مسرعًا إلى مكتبه في باب الخليل وطلب الياهو بالهاتف ثم أمر خادمه ألا يدخل إليه أحدًا غيره فدخل هذا بعد ربع ساعة هزيل الجسم، أصفر الوجه، له عينان صغيرتان براقتان تنمان عن خبث وذكاء! فصافحه سهيل قائلًا:

- أهلًا بك يا شريك، كيف الحال؟

- مثل القطران! لم نأكل ولم ننم ولم نربح شيئًا منذ أسبوع... وقد قُتِل أحد أقاربي.

- وهل عرفتم القاتل؟

- ومن أين لنا أن نعرفه؟ عندما هجموا عليه في البيت لم يكن فيه غير زوجته وأخته. فاختبأتا تحت الأسرّة ولم تريا أحدًا.

- لا بل رأتا القاتل وعرفتاه وسوف تسوقاه إلى المحكمة.

- ماذا تقول يا بيك؟! ومن قال لك ذلك؟! ومن هو القاتل؟

- هو ثابت حسين! هل عرفته؟

- ذلك الشاب الطويل ابن حسين الهاشمي! لا لا هذا مستحيل.

- إذا كان مستحيلًا فعليك أن تجعل المستحيل ممكنًا.

- ها! فهمت! أنت تريد ذلك... أنا تحت أمرك يا بك! ولكن هذا يكلف لأن...

- لك خمسون، وللعائلة خمسون. وهذه عشرون سلفًا للجهتين.

- أنا أخدمك مجانًا. ولكن زوجة القتيل متعصبة ولا تقبل بالقليل و...

- الياهو! لا تراوغ ولا تفاصل... اطلب شيئًا معقولًا.

- مئتا جنيهًا والنصف مقدمًا.

- ولكني لا أريد أن أعرف إلا النتائج! خذ هذه مئة وبقية المبلغ يوم الحكم.

- كما تحب! نم مستريحًا.. وسترى أن محسوبك يفهم كل شيء.

***

في ذلك اليوم الذي حيكت فيه هذه المؤامرة، دخل الطبيب بيت سليم الخوري فقابله صاحب البيت في الباب مستعلمًا وعليه علائم الحزن والكآبة فقال الطبيب:

- إن فحص الدم أظهر نتيجة سلبية. فإن وجدت عليها اليوم بعض أعراض التفوئيد نقلتها إلى المستشفى في الحال!

قال هذا ودخل غرفة سلمى وكانت منذ ثلاثة أيام تتقلب في الحمى. وبعد الفحص خرج إلى والدها وقال:

- يجب أن ننقلها إلى المستشفى اليوم، إن ذلك أفضل لها.. تشجع يا سليم أفندي... المرض يسير في مجراه الطبيعي، ولا يوجد مجال للخوف.

- وماذا أتشجع يا سيدي، وهي وحيدتي ومن أجلها أعيش! فقدت أمها وهي طفلة، فكرست حياتي لها حتى كبرت وأصبحت وردة في ربيع الحياة وها هي الأقدار تفاجئني بهذه النكبة، فبماذا أتشجع؟! وعلى كل حال الأمر لك... افعل ما تشاء فهي في عهدتك!

***

وفي صباح اليوم التالي جلس سليم أفندي على مقعده الخشبي في الجنينة حزينًا وقعد بجانبه ثابت يهوّن خطبه. وكان لا يزال معصوب الرأس بادي الهزال والتعب. ووقفت في الباب سيارة لنقل العائلة الحزينة التي أزمعت على الفرار من نكد الدهر. فاضطرب ثابت اضطرابًا شديدًا عند رؤيتها وظهرت عليه علائم التأثر والذهول، وتصبب العرق من وجهه فجأة.

أما ثريا فقد جمدت مكانها في السيارة عندما رأته وكاد يغمى عليها من شدة التأثر. فظن والدها أن ذلك من تأثير وداع صديقتها على نفسها، فهبط من السيارة مسرعًا وقال لها:

- لا تتحركي! سأدعو سلمى إليك! إنها أقوى منك وأصبر! ما أشد إحساسك، وأرق قلبك!

ثم تقدم نحو الرجلين وقد نهضا لاستقباله. فقال بحزن لم يخف عنها:

- نحن ذاهبون يا سادة، نستودعكم الله! أين سلمى... إن ثريا تكاد تسقط من شدة التأثر من هذا الوداع إنها شديدة الإحساس! أين سلمى؟

فأجاب الوالد الحزين والكآبة تسود نفسه:

- اسمح لي يا مجدي بك أن أودعها عوضًا عن ابنتي... لقد نقلناها منذ البارحة إلى المستشفى إنها مصابة بحمى التفوئيد!

- ماذا تقول؟! مسكينة... ومتى كان ذلك... ولماذا لم تخبرنا؟ أيقال لهذا صداقة؟! وأنت يا ثابت ألم يكن من حق الصداقة أن تخبرنا عن سلمى! ولكن ما بالك أنت أيضًا؟ هل جُرِحت... إنك شديد الاصفرار... وتتألم... هل أنت مريض؟!

فالتفت سليم إلى ثابت فوجده مضطرب الجسم مأخوذًا فقال متأثرًا:

- ثابت! ما بك؟ الآن كنت في صحتك! هل تحس بشيء؟ هل أنت مريض؟

- لقد تأثرت لمرض سلمى بمناسبة هذا الوداع.

فلم يقتنع مجدي بك بهذا القول وحانت منه التفاتة نحو السيارة، فرأى ابنته تنظر إلى ثابت نظرة أودعت فيها كل معاني الحب المتأجج، وقد عرفت ما به وأحست بما يعاني من ألم... رأى مجدي ذلك فاهتزت أعصابه... لقد فتح عينيه للمرة الأولى، وبثانية واحدة علم ما لَم يعلم بأيام! فودّع الرجلين مضطربًا، وناول لسليم عنوانه في لبنان وهرول إلى السيارة حائرًا مذهولًا. وسارت بهم السيارة مسافة طويلة وهو عاجز عن استجماع أفكاره والسيطرة على هواجسه...

لقد تحقق الآن أن ثابتًا وثريا متحابان، وأن حبها عميق ولكنه بائس. وإذن فثريا ترغب في السفر لا لينساها سهيل بل لتنسى هي ثابت! ويله ما أشد عذابه. إنه سبب هذه النكبة! ولولاه ولولا تسرعه لكان أسعد الناس بإسعاد هذين القلبين الكبيرين الطاهرين! لقد عرف

ثابتًا مما سمع عنه من ابنته وسلمى وكان يرتاب من كثرة مديحها له ولكنه كان يعزو ذلك إلى الإعجاب المجرد! أما الآن فقد علم أن الإعجاب في ابنته كان حبًا متبادلًا. ويحه من بائس حرمه الله منها فعلّق عليها آماله! أنشأناها أحسن تنشئة، وهذبناها أحسن تهذيب، وها هو يحطمها أسوأ تحطيم... ولكن ألا سبيل لإصلاح ما فسد؟ ألا يجوز أن يسعفه الحظ لتحقيق أمل ثريا في أن يسلوها سهيل ويقع على من توافق هواه؟!

إذن لينتظر! وليتجاهل ما يعلم، وليرقب الفرص! علّ الدهر يواتيه بعد انتكاس!

قاتل

جلست أم ثابت في بيتها الصغير معصورة القلب تائهة الفكر حائرة لا تدري ماذا تصنع، وقد ضاقت بها الدنيا بما رحبت. لقد اتهم ابنها بارتكاب جريمة القتل، في الساعات الأولى من ابتداء الاضطرابات في القدس! وأي تهمة وفي أي ظروف؟! لقد رأت بعينها وسمعت بأذنها زوجة القتيل وأخته تتهمان ابنها أمام قاضي التحقيق، والدمع يذرف من أعينهما، بألفاظ تدمي القلوب، لقد هاجم ابنها الرجل أمامهما فلم يرحم ضعفه وجبنه، ولم يكترث لتوسلهما، فارتكب الجناية. وعند خروجه زلت قدمه فهوى وشج رأسه، فالتصقت به البيّنة الدامغة والحجة البالغة... ولكن هل هذا ممكن؟ وهل يفعل ثابت هذا؟ وهل يقسو إلى هذا الحد! نعم إن تطرُّفَه في مبادئه الوطنية يدفعه إلى أشد من هذا لا سيّما في مثل تلك الظروف العصيبة، إذ ينسى الإنسان فيها نفسه، ويصبح آلة في يد التطرّف والتهور، لا يرِقّ ولا يرحم! وألبسته الملطخة بالدم التي وجدتها عند أوبتها من يافا! ألم تكن هي وحدها دليلًا على ارتكاب الجريمة! وكيف أخذ يتنصل لها بشتى الأعذار عن تلك الدماء، وقد ظهر الارتباك على وجهه ولسانه، وذلك الجرح؟ وَيْلها من أم بائسة... لقد ذهب ابنها ولن يعود!

قامت كاللبوة الثائرة تذرع أرض البهو، وتدور في غرف بيتها الصغير كالمعتوهة وقد اصفرّ وجهها وجَفَّت دموعها فلا تسعفها وتروح عنها بالانحدار... ماذا تفعل؟ وأين تذهب؟ ولمن تشتكي؟ ولكن ثابت مطمئن البال. ويصرّ على أنه بريء! وهل يكذب! لا، إنه لا يكذب

مهـما كانـت الظـروف، هكـذا عرفتـه، لا سـيما عليهـا. ومتـى كان يخفـي عنهـا أمـرًا! إذن في المسـألة سرٌّ لا بـد أن يُكشَـف! دخلـت نفسـها الراحـة... وزال عنهـا ذلـك الضيـق الخانـق! وانسـكبت دموعهـا...

وقـرع البـاب فهرعـت تفتحـه. فاسـتأذن سـليم أفنـدي بالدخـول. وتقـدّم إلى مقعـد في البهـو وجلـس عليـه تَعِبًـا، ولفّـت هـي نفسـها بوشـاح وتقدمـت بالقـرب منـه. وصمتـت وصمـت هـو أيضًـا، وفي قلـب كل منهـما قـروح! وأخـيرًا قالـت:

- لقـد أتعبنـاك يـا سـليم أفنـدي في شـؤوننا في حـين أن لـك مـن مـرض سـلمى مـا يشـغلك!

- لا تقـولي هـذا يـا سـيدتي. هـل عرفـتِ أنّ لـدي فرقًـا بـين ثابـت وسـلمى إلا في المظاهـر! إنـه ولـدي كـما أنهـا ابنتـي! لقـد أكّـد لي الطبيـب اليـوم أنهـا اجتـازت الخطـر فـزال همّـي مـن هـذه الجهـة، ولكنـه ازداد مـن الجهـة الأخـرى! فـإني لا أكتمـك أن المحامـين يقولـون إن دعـوى ثابـت تـزداد تعقـدًا!

- ثابـت! ثابـت! أهو قاتل! أممكن أن يكون ذلك؟

- أبـدًا يـا سـيدتي أبـدًا! مطلقًـا!! أنـا أفهـم عقليـة ثابـت أكـثر مـن أي إنسـان! إنـه يقـدم عـلى القتـال في العـراك مـع الرجـال! أمـا أن يهاجـم رجـلًا وهـو مختبـئ بـين زوجتـه وأختـه، فهـذا ليـس مـن شـأنه! ولكـن كيـف السـبيل إلى إقنـاع المحققـين والقضـاة بهـذا الـكلام؟ إنـه يـصر عـلى

عـدم الإفصـاح حتـى لمحاميـه عـن مـكان وجـوده بـين السـاعة الواحـدة والثالثـة مـن ذلـك اليـوم الرهيـب! إنـه يقـول إنـه بقـي في البيـت وحـده. وهـذا مـا لا يصدقـه المحققـون بالنظـر لما يعرفونـه مـن تطرّفـه! فيقولـون لـه: «أممكـن أن تسـمع أزيـز الرصـاص، وأنّـات المصابـين وتجمـد في بيتـك وحـدك قريـر العـين؟ لـو كانـت والدتـك في البيـت لقلنـا إنهـا منعتـك، أمـا أن تمتنـع مـن نفسـك فهـذا غـير معقـول». ثـم ذلـك الجـرح يـا سـيدتي! إنـه يقـول إنـه أراد الخـروج فوقـع بالبـاب وشـجّ رأسـه، ولم يـره أحـد! ولكـن أقـوالًا مجـردة كهـذه لا قيمـة لهـا بالمحاكـم! يجـب عليـك يـا سـيدتي أن تزوريـه وتضطريـه عـلى الإفصـاح عـن مـكان وجـوده في ذلـك اليـوم! إني مؤمـن ببراءتـه، وأعتقـد أن في الأمـر سرًّا يريـد أن يخفيـه لأسـباب وطنيـة. فيجـب أن نقـف منـه عـلى الحقيقـة كي نتوسـل بهـا لتحقيـق إنقـاذه.

وقـد قـال لي الطبيـب إن في الامـكان سـؤال سـلمى عـن ذلـك بعـد أسـبوع وبتحفّـظ شـديد خشـية أن يكـون هنـاك مـا يهيـج أعصابهـا، لأن معرفتهـا بالتهمـة تكفـي لصعقهـا! وعـلى كل حـال يـا سـيدتي يجـب أن نعمـل الليـل والنهـار للوصـول إلى غايتنـا! هـدئي روعـك يـا سـيدتي، وكفكفـي دموعـك لـن أتـرك واسـطة تقربنـا إلى غاياتنـا إلا وأحاولهـا!

- ثابـت ثابت! أيكون قاتلًا؟

- لا! هـذا مسـتحيل! أنـا ذاهـب يـا سـيدتي! ليـس لي مـن عمـل إلا وقضيتـه! أليـس هـو كولـدي؟! إنـه الملجـأ الأمـين الـذي ادخرتـه لابنتـي بعـد مـوتي إذ تصبـح وحيـدة في هـذا العـالم البائـس!

وبعـد يومـين أذن لهـا أن تـزور ابنهـا في سـجنه. فدخلـت بـاب الحديقـة وقلبهـا يخفـق وأطرافهـا ترتجـف! وجلسـت في قاعـة الـزوار تنتظـر قدومـه والدمـع يهطـل مـن عينيهـا. فلـما رأتـه قادمًـا نهضـت فطوّقتـه بذراعيهـا وأخـذت تقبّلـه بحـرارة، وأبقـت رأسـه بـين يديهـا بينـما تهـدأ أعصابهـا وتخفـي اضطرابهـا عنـه خشـية إبـداء الحـزن في قلبـه! فأحـسّ هـو بذلـك وقـال:

- لا تضغطـي عـلى نفسـك هكـذا! دعـي الدمـع يسـيل فهـو يخفـف عنـك. وثقـي بأننـي بـريء وسـأرجع إليـك!

- وكيـف يكـون ذلـك وأنـت لا تـزال تـصرّ عـلى الكتـمان حتـى عنـي... أنـا والدتـك!

- أمـي! إني لا أفعـل إلا مـا يـسرّك ويرفـع رأسـك بـين النـاس! أقـول لـك إني غـير مذنـب وهـذا يكفـي!

- ولـدي ثابـت إذا كنـت لا ترحـم نفسـك فارحـم دموعـي!! تكلـم!! إنّ هنـاك سرًا تـودّ أن تخفيـه! قـل لي الحقيقـة لعلنـا نتدبـر لإنقـاذك بـدون أن نذيـع سرّك. إن حياتـك ليسـت لـك. ألم تقـل لي إنـك تشـعر دائمًـا أنـك تعيـش مـن أجـلي؟! فـإن كلامـك هـذا مـن إصرارك عـلى تسـليم نفسـك للمشـنقة و...

كل يوم أموت حزنًا عليك! ارحمني! ارحمني..

قالت هـذا وأخذت تنتحب. فقال متأثرًا:

- أمـي! هـل أتيـت لتعذيبـي أم لتعزينـي عـلى مصـابي! أتريديـن أن أخـرج مـن هنـا بالخـزي والعـار، أم بـشرفي وطهـارة ضمـيري؟!

- لا يـا بنـي! إني أفضّـل أن أراك معلقـا عـلى أعـواد المشـنقة متوجًـا بشرفـك مـن أن أراك في ذروة المجـد ملطخًـا بالخـزي والعـار!

- إذن اتـركي هـذه الولولـة! وتيقنـي مـن بـراءتي! وإذا كان النـاس لا يـرون بـراءتي فسـوف ينقـذني اللـه بهـا! إن عـزائي الوحيـد في سـجني هـو علمـي بأنـك قويـة الجنـان، ثابتـة الأمـان! فـلا تزيـلي هـذا بشـعوري بحزنـك واضطرابـك! لا تدفعينـي إلى تغيـير عقيـدتي فيـك فتورثينـي هـمًّا فـوق همـي!

صمتـت الأم، وعـاد إليهـا هدوءهـا وداخلهـا الاطمئنـان مـن شـدة ثقتـه بنفسـه! وقالـت:

- لا أريـد أن أثقـل عليـك في شيء! ولكـن لا أكتمـك أني أخـشى إصرارك هـذا عـلى كتـمان سرك. وعنـي أنـا أمـك. وعـن المحامـين الذيـن يدافعـون عنـك! أليـس هـذا هـو الجنـون؟

- إني أقـول كلمـة واحـدة وكفـى! إن شرفي وشرفـك يحتـمان ذلـك. فدعينـي أقـوم بواجبـاتي! هيـا هيـا يـا أمـي لقـد نفـد الوقـت الـذي سُـمِح لنـا بـه ونحـن نتعاتـب! دعينـي الآن أرتـوي مـن قبلاتـك العذبـة! كـم أنـا مشـتاق

أن أشـتم رائحتـك، ارضي عنـي يـا أمـي، أضيئـي نفـسي بابتسـامتك اللطيفـة، نعـم هكـذا دعينـي أقبّلـك أيضًـا. ابتسـمي لي أظهـري سرورك منـي!

- ولكـن مـن أيـن لي الـسرور يـا بنـي وهـذا جسـمك الذابـل ينـمّ عـما تلقـاه في سـجنك! انظـر إلى احمـرار عينيـك واصفـرار وجهـك!

- لم أفعـل هـذا مطلقًـا! واقسـم لـكِ ألا علاقـة لمـا تريـن بهـذا السـجن. إنمـا أنـا مضطـرب لشـعوري باضطرابـك، هيـا يـا أمـي دعينـي مـن هـذا الـكلام، هـذا الغفـير يشـير إلينـا بقـرب انتهـاء الزيـارة... كيـف حـال سـلمى؟

- لقـد زال عنهـا الخطـر ولكـن الطبيـب يقـول إنهـا سـتمكث أيامًـا عديـدة بعـد حتـى تسـتجمع قواهـا وتعـود إلى البيـت، الآن لم نعلمهـا عـن تهمتـك. لأن الطبيـب يقـول إنهـا لا تحتمـل صدمـات كهـذه.

- مسـكينة لا تزعجوهـا بأخبـاري إنهـا حساسـة ولا ريـب أن الطبيـب مصيـب فيـما يقـول، وصديقتهـا.. هـل تسـأل عنهـا؟

- أي صديقة!

- ثريا..

- لا أعلم عنها شـيئًا.

- هيـا أمـي! هـذا الغفـير يشـير بانتهـاء المـدة. أعطنـي قبلـة أخـرى وأخـرى نامـي مسـتريحة... هـدّئي بالـك واللـه نصـير الأبريـاء...

نهضت الوالدة وهي أحسن حالًا من قبل! لقد أثّر فيها زهو ابنها واستخفافه بما هو فيه. إن البراءة تصيح من كل عضو من أعضائه فتملأ النفس يقينًا ببياض يده ونقاء ضميره!

وعاد ثابت إلى السجن وقد خلفت فيه هذه الزيارة حزنًا وكآبة! ماذا تفعل هذه الوالدة لو حكم عليه بالسجن المؤبد أو الإعدام، سوف تموت من أجله، يقتلها الحزن والحسرات! وماذا يفعل؟! أيخون واجبه فيفتضح أمر ثريا معه، ويكون بذلك القضاء على حياة والدها، وهو كثير الإحساس، ضعيف القلب، سقيم الجسم؟! أم يقوم بواجبه فيقضي على أمه التي تحيا من أجله، إنها لحيرة وإنه لضلال! ولكن والدته له، وحياة والد ثريا وسمعتها ليست له فإذا أراد أن يضحي فليُضَحِ بما كان له لا لغيره!

لقد أحب حبًا عقيمًا وتدله بذلك الحب البائس، فأصبحت الحياة مظلمة في نظره مرة في فمه، ثقيلة على نفسه، فهي والموت عنده سيان! ولكن والدته! ما ذنبها؟ ماذا يصنع بها؟

دخل السجن مُطأطَأ الرأس ينوء بحمل ثقيل، ويتألم بوخز الضمير!

لقد غالب المصاعب في حياته الفتيّة، ولكن هذه المعضلة صعقته، وألقته على الثرى يتقلب على رمضاء الحيرة والذهول!

وقابله زملاؤه من الموقوفين رهن التحقيق في قضايا الاضطرابات، ورأوا فيه هذا التبدل الفجائي. فقد اعتادوا أن يروه باسمًا رافع الرأس،

ثابـت النظـر، قريـر العـين، حتـى في أشـد حـالات البـؤس. أمـا الآن، ولم يغـب عنهـم إلا ربـع ساعة فقـد رأوه مُطأطَـأ الـرأس، تائـه الفكـر، خافـض النظـر! لقـد اعتـادوا في أيـام محنتهـم هـذه أن يسـتلهموا منـه معـاني القـوة والصبر والـرضى، وهـا هـو اليـوم يقـدم عليهـم وهـو في أشـد الحاجـة لإسـعافهم وتعازيهـم!

وأقبـل عليـه الشـيخ طالـب المعـروف بمواقفـه الوطنيـة في الخليـل فقـال بلطـف:

- هل من خبر سيئ؟

- لا! إنما تأثرت من رؤية الوالدة!

- إذا جـاز هـذا لغـيرك فـلا يجـوز لـك! ارفـع رأسـك ولا تظهـر ضعفًـا لا يليـق بـك. فأنـت قـدوة هـؤلاء الشـبان ومحـط أنظارهـم. ألم تقـل لنـا إن الضعـف والقـوة لهـما عـدوى كعـدوى الأمـراض السـارية!

رفـع ثابـت رأسـه، وزال مـا في نفسـه، وعاودتـه ابتسـامته الحلـوة، والتفـت إليهـم فقـال:

- مـا بالكـم هكـذا واجمـين؟ هـل ارتبتـم مـما رأيتمـوه منـي مـن ضعـف بعـد مقابلـة الوالـدة؟ لقـد شـعرت بهـذا الضعـف إذ قابلتهـا بمـا رأيتـه فيهـا مـن قـوة، فقـد قالـت لي إنـه أحـب إليهـا أن تـراني معلقًـا عـلى أعـواد المشـنقة مزدانًـا بـشرفي مـن أن تـراني في ذروة المجـد ملطخًـا بالخـزي والعـار!

فصاح الشيخ:

- لتحيا هذه الأم! وليعش ما أنجبت!

وعـاد الفتيـان الأقويـاء إلى مرحهـم، والتفـوا حولـه ينفـخ فيهـم روح القـوة والنشـاط.

عـادت أم ثابـت بخُفَـيّ حُنَـيْن، كـما عـاد سـليم مـن قبلهـا. فلـم يجـدا مـن ثابـت إلا الإصرار عـلى كتمانـه وعـدم اكتراثـه بالخطـر الـذي اسـتهدف لـه. فهـم يأتونـه باكـين يفتتحـون قلبـه بالدمـوع، ولكنهـم يعـودون صفـر اليديـن، وقـد ملئـت قلوبهـم بقـوة إيمانـه وطمأنينـة نفسـه.

لم يبـق أمـام سـليم إلا سـهم واحـد يرمـي بـه لإصابـة غرضـه! يجـب أن يسـأل ابنتـه، إذ لم يبـق ليـوم المحاكمـة إلا أيـام قلائـل ويجـب أن يكـون لديهـم مـن الوقـت ما يمكنهـم مـن التدبـر في أمـر شـهادتها مهـما كانـت. وربمـا كانـت هـي الوحيـدة العارفـة بهـذا الـسر. لا سـيما وقـد كان عـلى موعـد معهـا ظهـر ذلـك اليـوم كـما قالـت والدتـه!

فذهـب في اليـوم التـالي لزيارتهـا. وكانـت هزيلـة فاقـدة القـوة فـتردد كثـيرًا في سـؤالها ثـم قـال بلطـف:

- أتذكرين يوم اشـتعال الثورة إذ تناول ثابت معك طعام الغذاء؟

فاهتزت أعصاب سلمى وظهر الاضطراب على وجهها وصاحت:

- لا لا أذكر شيئًا! إنه لم يتناول طعام الغداء معي في ذلك اليوم! هذا ما أتحقق!

قالت هذا وقد ازداد اضطرابها وشعرت بهبوط في قواها. فحضر الطبيب ولما علم بالسبب أشار لسليم بالخروج ثم أخذ يلومه على محادثتها في أمور مزعجة تؤثر على أعصابها الضعيفة. ورجاه ألا يعود إلى ذلك مرة أخرى! فخرج هذا الشيخ المسكين طائرًا وقد سدت في وجهه أبواب الفرج.

ومرت الأيام سراعًا، وتلك الأم الحزينة، وذلك الجار الطيب والصديق الوفي، يركضان من مكان إلى آخر يتوسلان إلى هذا، ويرجوان ذاك، فلا يجدان غير قلوب غلف وآذان صماء! وماذا يفعل الناس إذا كان المتهم يصر على كتمان أمره ولا يرغب في إنارة سبل الذين يدافعون عنه؟! ألا يعني ذلك أن في هذه الجريمة جريمة أخرى يخفيها المتهم بإصراره على الكتمان؟!

أما سلمى فقد شُفِيَت من مرضها تمامًا، وأخذت تستعيد قواها بسرعة، ووعد الطبيب بإعادتها إلى البيت بعد يومين... وكان في هذه الأيام الأخيرة يسمح لها بالاستلقاء على مقعد وثير في شرفة تطل على جنينة المستشفى.

وجلست هناك عصر يوم تفكر في خروجها وما ينتظرها في البيت من

السعادة!! سوف ترى ثابتًا فهو ينتظرها بشوق، وثريا أيضًا كم تسرّ بخروجها، ترى ماذا حل بهذين العاشقيْن البائسيْن! والأمر الآخر، إنه مفاجأة للجميع! احمر وجهها لمجرد التفكير في هذا الأمر الآخر فما هو! لقد لاحظت منذ بدأت في دور النقاهة ميلًا ظاهرًا من الطبيب وشعرت بنظراته تخترق قلبها! وحدثها قلبها أن في فمه كلمة حلوة يريد أن يلقيها في أذنها في وقت مناسب!

ترى ماذا تقول عنه ثريا؟ إنها تعلم أنه سيملأ عين ثابت لصلابته الوطنية وإيمانه القومي!

ودخل الطبيب شفيق عندئذ وقد بدا الاضطراب على وجهه فجلس بجانبها على طرف مقعدها المحدود وقال متلعثمًا:

- الآن يمكنني أن أبلغك أن مدة سجنك قد انتهت! وبعد يومين تصبحين حرة طليقة! وأما أنا فسأبقى هنا وحدي بين هذه الأحزان!

- إنك تقوم بواجبك الإنساني، وهذه أكبر تعزية لك!

- وهل ترين أني قمت بواجبي نحوك؟!

- وأكثر من ذلك! أنا مدينة لك بحياتي!

- هل أنت جادة فيما تقولين؟

- هذا هو الواقع المحسوس!

- لـو فرضنـا صحـة مـا تقولـين وكنـت في الواقـع قـد أنقـذت حياتـك، أفلـم يعـد لي حصـة في هـذه الحيـاة؟ ألا يحـق لي أن أطلـب جـزءًا منهـا؟

فاختلـج قلـب سـلمى! وأخـذت أطرافهـا ترتعـش وغضـت مـن بصرهـا وتـورد وجههـا وابتسـمت وصمتـت! فتشـجع شـفيق وقـال مهاجـمًا:

- أتقولـين إني أنقذت حياتك ثـم تفرّين مني عند طلب الأجرة؟

- أجـرة الطبيب على الوالد!

- وأجرة المُحب الولهان؟

- أجـرة المحِب على.. على... على مَن أحب..

فتنفـس شـفيق الصعـداء ورفـع يدهـا إلى فمـه فلثمهـا بحـرارة وشـوق ثـم نظـر إليهـا فـإذا هـي تبتسـم إليـه مـن وراء نظـرة قـد انطـوت عـلى الحـب الخالـص والرقـة الذائبـة.

* * *

وخرجـت سـلمى مـن المستشـفى بعـد يومـين. وجلـس سـليم أفنـدي في بيتـه منكمشًـا كئيبًـا يـود أن يخفـي مـا بـه عـن ابنتـه فـلا يجـد إلى ذلـك سـبيلًا. لقـد أوصـاه الطبيـب عنـد خروجهـا بـألا يذكـر لهـا أي أمـر يهيـج أعصابهـا أو يثـير أشـجانها كي يظـل التحسـن في صحتهـا مسـتمرًا، فـلا يخلّـف فيهـا ذلـك المـرض الفتـاك شـيئًا مـن آثـاره المزمنـة. وأخـذت ابنتـه تداعبـه مـرة وتلومـه مـرة أخـرى عـلى عبوسـه، ثـم أخـذت تلومـه لعـدم إخبـار

ثابت وأمه عن خروجها كي يأتيا لزيارتها. كم هي مشتاقة إليهما! وثريا؟ هل كانت تسأل عنها دائمًا، وهل حزنت إذ علمت بمرضها؟ وإذ بالطبيب شفيق يدخل فتألقت عيناها بالحب الصادق وقال والدها:

- أهلًا أهلًا بالدكتور! لقد غمرتنا بإحسانك فلا أدري كيف أشكرك و...

- ليس لديك أقرب من شكري يا سيدي... اعذرني على صراحتي إني كطبيب أجهل أفانين الكلام وأحب فيه الإيجاز.

- ماذا؟! سَلْ ما تريد

- أريد بركتك!

قال هذا وأمسك بيد سلمى وتقدم إليه.

فأخذ الوالد ينظر إليها تارة وإليه أخرى وهو واجم من هذه المفاجأة ثم ارتخت أجزاؤه، وزالت الصلابة والكآبة عن وجهه، وحلت مكانتها ابتسامة الرضى وأمسك بذراعيهما وضغط عليهما، وأغمض عينيه وقال:

- اللهم بارك واحفظ واهدِها صراطًا مستقيمًا!

ونهضا فقبّلا يديه وقبّلهما بحرارة وصاح بشفيق وقد نسي سبب حزنه. فزالت كآبته:

- هكذا يا شفيق تداوي أجسام الناس وتجرح قلوبهم؟

- لا بل أداوي الأجسام والقلوب أيضًا!

وسمع في تلك البرهة أصوات باعة الصحف اليومية يتسابقون من هنا وهناك ويصيحون «أخبار المساء، الحكم بالإعدام على ثابت حسين، ثابت حسين يعدم!».

فهرع الوالد المسكين إلى الباب والنوافذ يريد إغلاقها، خشية أن تسمع سلمى بذلك الخبر المشؤوم الذي انقض على رأسه كالصاعقة إذ علم به منذ صباح ذلك اليوم، ولكن الصوت خرق أذنها بحمل ذلك الخبر الرهيب فصاحت كمن أخذ عقله:

- ماذا! ماذا يقولون! حكم على ثاب بالإعدام... ماذا يعنون؟ أريد أن أذهب إلى جارتنا.

- لا يا بنيتي! لا تذهبي أنت ضعيفة.

- إذن صحيح. ثابت يموت! لا، لا، ثابت لن يموت، لن يموت! دعوني أذهب... اتركوني... اتركوني.

وصاح شفيق متوسلًا:

- تمهلي قليلًا! أرجوك. أتوسل إليك! إن ذهابك يقتلك لا محالة! وما الفائدة من الذهاب؟! هل يلغي ذهابك حكمًا، أم يصيّر علينا حكمًا آخر ويجلب لنا مصيبة ثانية بانتكاسك؟! هدئي أعصابك! دعي الوالد يشرح لك الأمر!

- نعم يا والدي! أريد أن أعرف كل شيء! لماذا أخفيتم عني؟

- الأمر بسيط يا بنيتي! ألا تذكرين أيام الثورة؟! لقد اتهم ثابت بالقتل في الساعات الأولى من ابتدائها! ولذلك أردت مرة أن أسألك عما تعلمين عن مكان وجوده في ذلك اليوم، لا سيّما ووالدته تقول إنكم اتفقتم قبل ذهابها إلى يافا في صباح ذلك اليوم على أن يتناول الغداء معك! ولكنك اضطربت من هذا السؤال وقلت إنه لم يتناول طعام الغداء معك يومئذ، ذلك اليوم الهائل منعني شفيق من إعادة إلقائه عليك ما دمتِ في حالتك الحاضرة. ولذلك أخفيت عنك هذه الحادثة.

كان الوالد يتكلم وسلمى واجمة ذاهلة. وقد أخذ العرق يتصبب من وجهها واهتزت أطرافها ثم هبطت مكانها إعياءً واضطرابًا! ولكنها نهضت بعد قائق! فنظرت إلى ما حولها نظرة حائرة ثم بدت عليها علائم الحزم وصاحت:

- أبي! أبي! إنه بريء! إنهم يكذبون! وهو يعرف ذلك!

- هذا ما أراه يا بنيتي! ولكنه مصرّ على عدم إنارة القضاء في كشف ستار عن هذا الحادث فيما يختص به...

- ذلك لأنه شريف! ذلك لأنه وفي! ذلك لأنه يضحي بنفسه لإنقاذ سمعة غيره!

- ماذا تقولين؟! هل تعرفين السر؟

- نعم! نعم أعرف! أعرف! ويجب أن أعترف لأنقذ حياته إذا كان هو يصرّ على الكتمان!

فذهل الرجلان من هذا التصريح الهائل! واعتقدا أن ذاك السر إنما هو حادث علاقة آثمة بين سلمى وثابت! اختار هو الموت على افتضاحها! فأخذ جسم ذلك الوالد المسكين يهتز كما تهتز أغصان الأشجار إذا ما داهمتها رياح عاصفة! وحملق عينيه وصاح بصوت أجش رهيب:

- يا ويلك من زانية! يا ويلك من فاجرة!

فصاح به شفيق:

- استر ابنتك أيها الشيخ! إنها قطعة منك!

فعرفت المسكينة خطأها فيما ذهبا إليه. وطغت عليها العواطف المتضاربة المتناقضة، فأخذت تبكي وتضحك في آن واحد، وهجمت على والدها تضع يدها على فمه وتقول:

- أبي أبي! لا تُلطّخ فاكَ! لا تُسوّد ضميرك! أنسيت أني من لحمك ودمك وأن نفسي وخلقي من صنع يدك! لا تظن بي سوءًا.

- إذن ماذا؟! قولي أفصحي! إني أكاد أموت! طمئنيني على شرفي.

- إن شرفك وشرف ثابت في أمان!

- آه... الآن قولي... ماذا... لا! قفي قليلًا لأستريح!... نعم! تكلمي الآن.... السر السر حالًا..

- تعال يا أبي إلى الغرفة الثانية! شفيق! أرجو معذرتك الأمر لا يختص بي! وكتمانه عنك على الأقل محتّمٌ عليّ!

- لا سرّ بـين المـرء وزوجته. هذا هو العرف عندنا!

قال هذا وسـيماء الغضب تشعّ من وجهه. فقالت المسـكينة مضطربة:

- كـما تريـد. لا تغضب! إني لا أعـرف العوائد المتبعة بين الأزواج بعد!

وأخـذت سـلمى تقصّ عـلى والدهـا وشـفيق تفاصيـل ذلـك الحـادث واضحـة صريحـة لا تشـوبها شـائبة. فلـم تتـمّ حديثهـا، حتـى وثـب ذلـك الشـيخ مـن مكانـه كالمعتـوه وأخـذ يصيـح بمـلء فمـه:

- يـا أم ثابـت! يـا أم ثابت.... بُشراكِ! يا أم ثابت! يا أم ثابت!

وخـرج مـن بيتـه يركـض كمـن أخـذ عقلـه. وكان سـليم أفنـدي رجـلًا مـن رجـال الطـراز القديـم المسـتقيم في مبادئـه المحافـظ عـلى عوائـده، نحيـف الجسـم، قصير القامـة، عصبـي المـزاج، سريـع الحركـة، ذا عينـين براقتـين ولحيــة خفيفــة حافــظ عليهــا مــن اجتيــاح الدهــر وعوائــده الجديــدة محافظـة الأمـين المخلـص. وحافـظ معهـا عـلى أمريـن لبـس السـواد وسـبحته القصـيرة. أمـا السـواد فقـد اتبـع لبسـه منـذ وفـاة زوجتـه الأمينـة أم سـلمى. وأمـا السـبحة فقـد كانـت الميراث الوحيـد مـن شـبابه ولذلـك كان يضمخهـا بالطِّيـب، وكلـما تذكـر الأيـام الماضيـة فركهـا بـين راحتيـه واشـتم رائحتهـا بشـوق ولـذة وذكـر أيـام الصبـا فـزاده الفكـر نشـاطًا وقـال بـلا شـعور: «سـقى اللـه تلـك الأيـام»، وكان أيضًـا سـليم الطويـة، محبًـا للخير. تأخـذه عاطفـة الكـرم، وتسـتهويه الأخـلاق السـامية وتسـتخفه النخـوة، ويطـرب لمسـيرة النـاس ولمسـاعدتهم!

فلما سمع حديث ابنته هاجمته هذه العواطف فاندفع إلى التي قاسمها الحزن منذ أن خيّم عليها الحزن بظلامه الدامس، ليقاسمها السرور إذ ملأ السرور نفسه... وأطل الجيران من نوافذهم مذعورين، وكان الجميع في حزن عميق. واندفعت أم ثابت إلى الباب هائجة كاللبؤة الجريحة وتبعها من التَفَفْن حولها من أقاربها ليشاهدن ما هنالك، واندفع الشيخ في وسطهن بدون استئذان وكلهن متحجبات وأخذ يصيح بدون تفكير ولا شعور:

- أم ثابت! أم ثابت! بُشراكِ! بُشراكِ!

وظنّ النسوة أن الشيخ قد مُسّ في عقله لشدة تأثره عند سماع أصوات باعة الصحف يعلنون خبر الحكم على الناس، فقفزن إلى الوراء مذعورات وأخذن يختبئن في الغرف! أما أم ثابت وقد ظنّت ظنّهن فقد تقدمت إليه بجرأة. وقد أخذها الإشفاق عليه وأمسكت بذراعيه وصاحت:

- جارنا! جارنا! هدئ من نفسك! لا تضطرب! تعال! اقعد هنا! استرح هنا! يا رب ما هذه المصائب!

فصاح بها مذهولًا وقد علم ما دار في خلدها وخلدهن:

- لا يا سيدتي! أنا لست بالمجنون! أنا عاقل! ابنتي سلمى... سلمى كشفت السر. إن ابنك بريء كما قلت لك! أنا لست بمجنون!

ودخلت سلمى مرتكزة على ساعد خطيبها وصاحت:

- أمي! أمي! اغفري لي قصوري! لم أعلم بالأمر إلا اليوم. وعن طريق الصدفة.

فصاحت الأم الثكلى:

- ماذا! تعالي! قولي! تكلمي!

- ليس هنا! تعالوا نذهب إلى بيتنا وحدنا.

والتفتت إلى السيدات اللواتي التفنن حولها يلتقفن ما بفمها فقالت:

- معذرة يا سيداتي..

وعادوا إلى بيتهم بصحبة أم ثابت. وأخذت سلمى تعيد عليها تفاصيل الحادث وما إن أتمتها حتى رأوا أم ثابت تسقط مغشيًّا عليها من شدة التأثر. فأخذ الطبيب في إسعافها مع سلمى. أما ذلك الشيخ الحريص فركض إلى مكتبه وكتب البرقية التالية:

«السيدة ثريا - بيت مجدي بك الصالحي - ظهور الشوير - لبنان.

حكم على ثابت بالإعدام بتهمة قتل وقع بين الواحدة والثالثة من يوم اشتعال الثورة. يصرّ على كتمان الحقيقة خشية افتضاح الأمر. احضري حالًا لننقذه قبل فوات الوقت».

ثـم عـاد إليهـم، فسلّم البرقيـة لشـفيق ورجـاه أن يرسـلها في الحـال. والتفـت إلى السـيدتين فقال:

- أنـا ذاهـب لأنقـل الخبر لثابـت في السـجن ثـم أواجـه المحامـين كي يهيّئـوا لائحـة الاسـتئناف في الحـال.

وخـرج الشـيخ يركـض إلى السـجن كمـن مُـسَّ في عقلـه، فلـما مـرّ مـن تحـت نوافـذه عـلى شـارع البوسـطة وسـمع أـصوات المسـاجين أخـذ يصيـح بـدون شعور:

- يا ثابت! يا ثابت! سـوف تنجو! وجدنا البيّنات!

وصاحبـه الحـارس يطلـب إليـه السـكوت. وسـمع هـو وقـع خطـوات المسـاجين يركضـون إلى النوافـذ لـدى سـماع هـذا الصيـاح. فـازداد صياحًـا:

- ثابـت! ثابـت! ثابـت حسـين! بَـشّروه! يـا نـاس! يـا مسـاجين بـشّروه! ربنـا ينظـر إليكـم، ويرحـم عذابكـم! بـشّروه سـوف ينجـو! بـشّروه لوجـه اللـه!

واقترب منه الحارس فقال هامسًـا:

- مـاذا تقـول يـا شـيخ! أينجـو هـذا الشـاب؟ أليـس هـو الـذي حكـم عليـه اليـوم؟

- نعم! نعم ثابت حسـين! ثابت حسين!

- واللـه مـا رأيـت أشـجع منـه! فقـد تلقّـى حكـم الإعـدام باسـمًا! إذن سـوف ينجـو! ووجدتـم البيّنـات؟! لـو تعلـم كيـف اسـتقبل سـكان هـذه

المكان المظلم خبر الحكم عليه! إنهم يحبونه ويحترمونه ونحن كذلك! اصبر سأنقل الخبر إلى أحدهم كي يوصله إلى الزنزانة.

وانتقل الخبر داخل السجن بسرعة البرق. وهلّل المساجين وكبّروا.

ثم رجع الحارس وأشار إليه بالذهاب وأعلمه بوصول الخبر الطيّب إلى مستقرّه، فهرول الشيخ مسرعًا لمقابلة المحامين بعد أن أومأ إلى الحارس مئة مرة بالشكر والامتنان.

في المنفى

ليس في الناس أشقى من محبٍّ يائسٍ يكتم حبّه! ومنكوب ببلية سقطت عليه من عزيز لا يطيق ردّه! فهو يحترق بما تخبئه ضلوعه وحُرِم من الشكوى! وينوء بثقل نكبته ويُحرم من إظهار البلوى! هاتان حالتان تقلّب فيهما جسم ثريا الذي أبدع اللهُ خلقه، فهدّتاه، ففاض ملؤه، وزال رواؤه!

وذلك الوالد المعذب بجريرته، المحترق بلوعة فلذة كبده، رأى تلك الابنة التي كانت قرة عينه، ومعنى حياته، تذوب بحرارة الحب اليائس، ولا يطيق مواساة ذلك القلب المحترق، ولا رد تلك النكبة التي جلبت يداه! فثارت نفسه على نفسه، ولازمه الاضطراب والقلق، فهزل جسمه، وازداد سقمه، وضاق صدره، وسلّم نفسه للحزن الصامت!

وكان قد علم مما كتبته الصحف الفلسطينية بالتهمة التي أُلصقت إلى ثابت، غير أنّ سليمًا أكّد له مرارًا في رسائله العديدة أنها دعوى باطلة وسيخرج منها ثابت نقيّ القلب طاهر اليد! ولكنه تحقق أن هذا الخبر إذا وصل ثريا قتلها! فأخذ منذ أن علم به يخرج إلى دائرة البريد فيتناول صحفه وكتبه بيده، ثم ينتبذ مكانًا يقرأها كلها فيه بدقة، فيتلف كل ما فيه إشارة إلى ذلك الموضوع، ويعود إلى البيت بالباقي خاليًا من ذكر هذا الحادث.

ولم يكن له من عمل يتلهى به، إلا أن يراقب حركات ابنته ويتحسس ما في نفسها، علّه يجد مكانًا للمواساة، أو موضعًا ينفذ منه إلى تفريج

كربها فلا يجد إلا حزنًا ولا يحسّ إلا حرقًا وقروحًا، وقد لاحظ أنها في بعض الأحايين يساورها الهمّ الشديد، فترغب في الترويح عن نفسها، فلا تجد إلى ذلك سبيلًا، فتكاد تختنق وهي تنظر إليه، وهو ينظر إليها، ولا يرى سبيلًا إلى إسعافها والتخفيف عنها، وتحقق أن الاستمرار على هذه الحالة سيودي بها لا محالة. فصمم على تغيير خطته تجاهها وانتهاج خطة أخرى!

لقد تحقق أن الضغط يولّد الانفجار، وأن حصر ما تعانيه من حرقات في نفسها يحرقها حرقًا! فلو بثت له بما تلاقيه من عذاب خففت عنها بعض ما تجد. ولكن هل يجوز هذا؟ أفيشجعها على حبّها العقيم! أيقرّها على عاطفه آثمة في عرف الناس وعوائدهم؟! وإن لم يفعل كذلك أفيقضي على ابنته تشدده؟! لا.. لقد صمم على إعادة الكرّة في المطالبة بفسخ العقد من سهيل بأي طريقة وفي أي حال. وإذا كان هذا فلمَ لا يُقرها فيما بينهما على حبّها، فيعزّيها بالأماني، ويحيّيها بالأمل والرجاء! ولكن كيف يُقدِم على ذلك؟ إنه يشعر بالخجل إذا ما فكر في هذا الأمر، فكيف يقدم عليه؟!

وجلس ذات يوم بجانبها تحت أشجار الصنوبر، لا ليمتع الطرف بمنظره البهيج، ولا ليشنف السمع حفيفه الشجي، ولا ليستاف نسيمه العليل، بل جلس يراقب تلك الزهرة تذبل، ويستمع إلى قلبها يخفق، ويتلقى أنفاسها تستعر...

كم مرة جلس قبل اليوم بين أشجار الصنوبر، يصطنع لها البيوت

مـن أوراقـه الذابلـة، فتثـب حولهـا فرحـة تملأ المكان ضحـكًا وسرورًا، ثـم بعـد ذلـك كـم مـرة جلـس بـين الصنوبـر، تقـرأ لـه بصوتهـا العـذب وهـو مضطجـع عـلى مقعـده، يراقـب يـد الصبـا تمدهـا بنضارتـه، والجـمال يخلـع عليهـا مـن جلابيبـه، والصحـة تغـدق عليهـا مـن نعمهـا! وهـا هـي اليـوم، زِرٌّ ورد لفحـه ريـح السـموم قبـل أن يتفتـح للنـور... ويـا لـه مـن ظـالم غاشـم!

تحـدرت الدمـوع مـن عينيـه مـدرارًا، ولم يطـق لهـا ردًّا. فرفعـت تلـك الضحيـة إليـه ناظريْهـا المُضنيَـيْن، ثـم نهضـت فطوّقـت جيـده بذراعيهـا وقبّلتـه ولم تنبـس ببنـت شـفة! ومـاذا تقـول لـه؟! وهـي تعلـم أنـه يبـكي منهـا ولَهـا؟! ومـاذا تصنـع وهـي منكوبـة بصنعـه؟! جلسـت بجانبـه وكتبـت عـلى ورقـة صغـيرة بيتـين مـن الشـعر وناولتـه إياهـا فقـرأ:

وإذا رُميتَ مـن الزمـان بريبـة أو نالك الأمر الأشـقى الأصعبُ

فـاضرع لربـك إنـه أدنى لمَـن يدعوه من حبل الوريدِ وأقربُ

تنفـس الصعـداء! واسـتقرت نفسـه الحائـرة! لقـد سـلّمته مفتـاح هـذه المعضلـة فليعالجهـا بـه! نعـم يجـب أن يقرّهـا عـلى حبهـا بمداعبتـه الشـعرية. إن ذلـك يـروّح عـن نفسـها ويلهيهـا عـن بعـض مـا بهـا.

وفي صبـاح اليـوم التـالي دخـل إلى غرفتهـا وهـي لا تـزال في سريرهـا مسـتلقية صفـراء الوجـه ملتهبـة العينـين مشـدوهة العقـل، فنظـر إليهـا بحـزن وألقـى

عليها رقعة كتب فيها بيتين للسيّد! فأخذت الرقعة وقرأت:

ما بال مجرى دمعك الساجم أمن قذى بات بها لازم

أم من هوى أنت له ساهر صبابة من قلبك الهائم

فرنت إليه بعينيها الذابلتيْن، وقرأت في وجهه ما جاش في نفسه. فعلا وجهها الاحمرار الشديد وارتخت أجفانها، وأجهشت في البكاء، ثم ألقت نفسها على صدره فاختلطت دموعها السخينة وأحسا براحة، وقال:

- هاتي يا ابنتي، بُثّي إلي ما تجدين، وخففي عن نفسك بالشكوى لي ومني! إني أشعر أن قلبك يكاد ينفجر مما تكنّين فيه، وجسمك يحترق مما تخفين بين جوانحه! أما قرأت قول العباسي:

«لعمرك ما يستريح المحب حتى يبوح بأسراره».

عادت فبكت وبكى... وبعد برهة قالت:

- إن هذا يوم جميل! ألا تتركني ألبس ثيابي ونخرج نتحدث في الهواء الطلق؟! ما أطيب قلبك يا أبي! وما أرقك هذا الصباح!

فاجأها مداعبًا:

- انهض أيها القلب المعذب، واتبعني أرطبك بحلو الأماني وعذب الآمال..

نهضـت ثريـا واسـتحمت بالمـاء البـارد، ثـم عـادت فلبسـت أجمـل مـا لديهـا، وخرجـت إليـه تبتسـم وكأنهـا عاودتهـا الحيـاة. فصـاح مـسرورًا:

- هـذا كرسي الاعتراف! اقعـدي وافتحي لأبيك هذا القلب المغلق!

فتجاهلت ما يقصد حذرًا وخجلًا وقالت باسـمة:

- مالـك تتكلم بالألغاز؟

- لا ألغـاز بعـد اليوم! إني أعرف كلّ شيء.

- ومـاذا تعرف! ومن أنبأك بما تعرف؟!

- أنتِ وثابت!

وجمـت المسـكينة وخفـق قلبهـا، ثـم ثـارت عواطفهـا وشرقـت بالدمـع. فقـال:

- ثريا! هدّئي روعك! أنا معك، وسـأعمل على ما تحبين.

- أبي! مـا أطيـب قلبـك، وأرق عواطفـك! قـل كيـف عرفـت، وهـل كتـب لـك!

- لم يكتـب لي أحـد. إن قلبـي المعـذب المثقـل بمـا صنعـت يـداي، هـو الـذي أنبـأني بـكل شيء!

- كيـف، كيـف لا أريـد هـذه اللغـة الشـعرية! كلمنـي باللغـة العمليـة العاميـة الطبيعيـة! كيـف عرفـت! ولمـاذا لم تتكلـم قبـل اليـوم؟! هـل تـمّ شيء! هـل قبـل سـهيل؟

وسـمعت قرعًا شديدًا على الباب فقالت بنزق:

- إنهـم لا يسـعمون في الداخـل! لا تقـل شـيئًا! سـأفتح البـاب وأرجـع. أريـد أن أعـرف كل شيء! لا كتـمان بعـد اليـوم!

وتنفـس الوالـد الصعـداء، وشـعر أنـه أزاح عـن قلبـه جـزءًا عظيـمًا مـن حملـه الثقيـل! سـيدخِل إلى نفسـها قبسًـا مـن نـور المـرح والـسرور بالأمـل والأمـاني. ويخفِّـف عـن نفسـها بعـض مـا تجـد ببـثّ شـكواها إليـه. ومـن جهـة أخـرى سـيجابه سـهيلًا بالحقيقـة! ويعلمـه بارتبـاط ثريـا وثابـت بالربـاط الـذي لا عـلاج لحلـه... نعـم سـيفعل ذلـك! اليـوم! وبحضورهـا! لتشـاركه في كل شيء مـن هـذا القبيـل فتتلهـى بالعمـل لمـا تحـب! وإذ بصـوت ابنتـه يخترق أذنـه، ويمـلأ نفسـه رعبًـا! ركـض نحـو البـاب فـإذا بهـا ملقـاة في الممـر بـلا شـعور. فانكـب عليهـا وصـاح:

- ابنتـي! ثريا! ثريا! حبيبتي!

وهرعـت إليـه أمهـا مرتعبـة وأقبـل الخـدم وسـادت الضوضـاء... ولاحـظ والدهـا في قبضتهـا ورقـه تـكاد تتمـزق مـن شـدة ضغطهـا. فتركهـم يسـعفونها بمـا ينعـش قلبهـا ويـبرد شـعورها، وأخـرج الورقـة مـن بـين أصابعهـا، وقـرأ برقيـة سـلمى... وأفاقـت هـي مـن إغمائهـا ونظـرت إليهـم مذهولـة ثـم

تذكرت البرقية فنهضت مسرعة... وصاحت كالمأخوذة:

- أريد أن أذهب إلى القدس! إلى القدس! لقد أُعدِم يا والدي! لقد أُعدِم!

حضنها أبوها بلطف وقال:

- لا لا لم يعدم! الأمر سهل جدًا، وفي الوقت متسع لإنقاذه! هذه البرقية أعيدي قراءتها! إنه لم يعدم! خذي واقرئي!

- ماذا! اقرأ أنت! لا أفهم شيئًا ولا أرى شيئًا!

أخذ والدها يعيد قراءة البرقية ويفسرها. فقالت:

- لا لا، إنهم يكذبون عليّ! يجب أن نذهب الآن الآن.

وأفلتت من أبيها وهمّت بالخروج وكأنها تشعر أن القدس منها على قيد خطوات تريد أن تجتازها على قدميها! وأمسكها ثانية وصاح:

- الآن نذهب! كما تريدين! ولكن هدّئي روعك! اذهبوا هاتوا سيارات! لنذهب جميعًا! وليبق أحد الخدم للمجيء غدًا مع الأمتعة.

وصاحت الأم مذهولة:

- ما بالكم تتكلمون بالألغاز! أتتركونني هكذا بظلام الحيرة؟ ألا تقولون ماذا دهاكم؟!

فصاحت ثريا:

- أمـي! أمـي! سـأقول لـك كل شيء فدعيهـم يهيئـوا لنـا أسباب السـفر في الحـال.

* * *

وعنـد الأصيـل أقبلـوا عـلى بيـت المقـدس! وقد سـاد عليهـم الصمـت والحزن! وكانـت ثريـا قـد تحدثـت لهـم في الطريـق عـما جـرى لهـا منـذ عودتهـا مـن الكليـة بالتفصيـل! فأُعجبـا بصلابـة ثابـت، وعلـوّ نفسـه! وعظيـم تضحيتـه في سـبيل كتـمان أمرهـا!

ولما أطلّوا على المدينة تنفسـت ثريا الصعداء. وأنشـدت قول البارودي:

أحـسّ في قلبـي دبيـب المنـى وألمح الشـبهة في خاطري

فسـالت دمـوع الوالديـن! وطوّقتهـا أمهـا بذراعيهـا! وذهبـوا تـوًا إلى بيـت سـليم أفنـدي فقابلهـم مـع ابنتـه بدمـوع الحـزن والفـرح ممزوجـة. وأخبرهـم في الحـال أن المحامـين يـرون أن شـهادة الآنسـتين في حـصر وجـود ثابـت كـما سـمعوها مـن سـلمى كافيـة لإلغـاء الحكـم في محكمـة الاسـتئناف! فانجابـت سـحابة الحـزن عـن وجـه ثريـا، وشـعرت بالـسرور بداخـل قلبهـا والأمـل يمـلأ نفسـها!

وبعـد سـاعة قضوهـا يسـتمعون إلى سـليم بـسرد حـوادث الدعـوة وتصاريفهـا، ومـرض سـلمى وخطبتهـا، دخلـت أم ثابـت وكلهـا أفـواه شـكر واعـتراف بالجميـل. ولمـا عرفتهـا ثريـا أجهشـت في البـكاء، وبـدون أن تنتظـر مراسـم التعـارف ألقـت بنفسـها عـلى صدرهـا وأخـذت تسـتنشـق رائحتهـا، وكأنهـا تجـد فيهـا رائحـة ثابـت.

الضجَّة

خـرج ثابـت مـن السـجن وضّـاء الجبـين، نقـي اليـد، بعـد سـماع شـهادة الفتاتـين، وأعلنـت المحكمـة في قرارهـا إعجابهـا بصلابتـه ومتانـة خلقـه، إذ استسـلم للمـوت في سـبيل المحافظـة عـلى سرّه، الـذي رأى فيـه صيانـة شرف فتـاة طاهـرة بريئـة.

وأعـاد مجـدي بـك الكـرّة في مطالبـة سـهيل بفسـخ العقـد، بعـد أن تبـين لـه مـن تصاريـف هـذه القضيـة ومـا ذاع عنهـا القريـب والبعيـد، مـن أن زواجـه بثريـا أصبـح عبثًـا بـل ضرورة لـكلّ مـن الزوجـين وذويهـما. ولكنـه لم يجـد منـه أُذنًـا صاغيـة أو قلبًـا واعيًـا. ثـم أخـذ يسـعى لـدى أصدقائـه وأقاربـه علّهـم يؤثـرون عليـه فيحملونـه عـلى فسـخ عقـد الـزواج محافظـة عـلى سـعادته وشرفـه. وأجهـد نفسـه في ذلـك، وأنفـق النفقـات دون أن يصـل إلى أي نتيجـة مرضيـة! بـل إنـه وجـد في النهايـة، أنـه كلـما ازداد إلحاحًـا في المطالبـة بفسـخ العقـد ازداد سـهيل إصرارًا عـلى الرفـض، حتـى كلّ وملّ وظهـرت عليـه علائـم القنـوط والنَّصَـب! وعـاوده وخـز الضمـير، ولابسـته حرقـات الحـسرة! فسـاءت صحتـه، وتهدمـت قـواه!

وكان منـذ بـراءة ثابـت؛ أخـذ عـلى نفسـه وعـلى ابنتـه أن يبتعـدا عنـه خشـية كلام النـاس، الذيـن لا هـمَّ لهـم إلا تسـقط مثالـب الغـير. وتلافيًـا لـكل مـا يثـير حقـد سـهيل، طمعًـا في الوصـول إلى غايتهـم. ولكنـه أعلـم ثابـت منـذ البـدء أنـه لـن يسـلم ابنتـه إلا لمـن ترغـب. وأنهـا مـا دامـت لا

تـرى عنـه بديـلًا، ومـا دام راغبًـا فيهـا، فلـن تكـون إلا لـه... وهكـذا ظـل ثابـت هادئًـا يعيـش بالأمـل الصامـت، والأمـاني البعيـدة!

وأمـا تلـك المسـكينة، فقـد صدمتهـا الخيبـة في تحقيـق فسـخ العقـد بعـد فوزهـا في إنقـاذ مـن تحـب؛ وبعـد إعـلان حبهـا لمـن تريـد! فسـادت الكآبـة نفسـها، وعـاد الحـزن يحـلّ سـويداء القلـب منهـا... وكان عزاؤهـا في أن تجـد مـن والدهـا مناصرة ورغبـة في العمـل لمـا تريـد، وفيـما يلقيـه والدهـا في أذنهـا بـين آونـة وأخـرى مـن عبـارات التشـجيع عـلى الصبر، والتريـث بينـما يتحقـق سـهيل مـن عقـم عنـاده، وضرر إصراره عـلى سـمعته!

واسـتلم مجـدي بـك ذات يـوم إعلانًـا مـن المحكمـة الشرعيـة بـأن سـهيلًا القـوصي يطالبـه بتسـليم ابنتـه ثريـا بصفتهـا زوجتـه بموجـب العقـد الشرعـي النظامـي الموجـود في حوزتـه والمسجل في المحكمـة الشرعيـة. فلـم يتـمّ قراءتـه حتـى استشـاط غضبًـا لتحققـه مـن أن سـهيلًا قـد تسـفل إلى درجـة الالتجـاء إلى الوسـائل الإرغاميـة، في مثـل هـذه العلاقـات! وقـام يرغـي ويزبـد، ويلعـن ويشـتم! ويتهـدد ويتوعـد! حتـى خـشي عليـه ذووه مـن هـذا التهيـج الشـديد، الـذي أنسـاه نفسـه حتـى تلفـظ بألفـاظ لم يسـمعوها منـه في حياتهـم!

ثـم أحـس بهبـوط في قـواه وبصـداع شـديد يلـم بـه! فاسـتدعى الطبيـب، فأُشـير إليـه بالتـزام الهـدوء والسـكينة، والابتعـاد عـن كل مـا يثـير غضبـه أو يزيـد همـه! وأيـن لـه هـذا وسـهيل قـد أزمـع عـلى توجيـه هـذه الضربـة الأخـيرة القاسـية إليـه؟! أم يفـرّ مـن وجـه القانـون بابنتـه فيصبـح طريـدًا

شريدًا؟ أما التسليم فإنه يفضل الموت عليه، لأنه بذلك إنما يسلم ابنته للموت المتكرر كل يوم! ألا يدل إصرار سهيل على الاستيلاء عليها، بعد أن تحقق من رفضها إياه، أنه إنما يزيد إرغام أنفها، وإذلال نفسها، وسحق قلبها والتنكيل بها! وأمّا الفرار؟! حبذا هو لو كانت صحته تساعده على ذلك! وصحتها أيضًا، وتُهَم الناس! وسخرية القدر... ويا له من شقي بائس!

أخفى عن ابنته هذا الخبر السيّئ في اليوم الأول، ولكنه اضطر إلى إخبارها في اليوم الثاني! وماذا يفيد التكتم في أمر لا بد من ظهوره عاجلًا أو آجلًا؟! تعرف الوضع الذي هي فيه، لعلها تُدْلي برأي يكون هو الصواب. ولتعرف ما أقبلت عليه وما استُهدِفت له من خطر، فلا تصمي قلبها روعة المفاجأة! فلما علمت به اصفر وجهها، وزاغ بصرها، وهبطت مكانها لا تقدر على الوقوف على رجليها وأخذت تنظر صامتة تارة إلى أمها وتارة إلى أبيها نظرة الحيرة... وازداد اضطرابه لمنظرها ذاك، وخشي أن تكون قد أصابتها لوثة في عقلها، فانقلب إليها، يهوّن الأمر عليها، ويؤمّلها بشتى الحجج العقيمة، بإمكان فسخ العقد بواسطة المحكمة الشرعية، وهو عالم باستحالة ذلك شرعًا!

وانتابت مجدي بك في منتصف تلك الليلة نوبة عصبية، اضطروا معها إلى استدعاء عدد من الأطباء للاستشارة! فقرروا أن تلك النوبة قد أثرت على قلبه تأثيرًا شديدًا. وأنه إن استهدف لنوبة أخرى بإيقاع نفسه تحت تأثير الغضب والهم، فالخطر على حياته إذن محقق.

كتـم الأطبـاء ذلـك عنـه، وأسرّوه إلى زوجتـه وابنتـه، فوقـع عليهـما وقـع الصاعقـة! وحارتـا في أمرهــما! ومـاذا تصنعـان، وهــما تعرفـان أنــه في كل يـوم معـرض للوقـوع تحـت تأثـير الغضـب والحـزن والهـم! وأن سـهيلًا لـن يرحـم أحـدًا في المطالبـة بمـا يريـد!

نظـرت ثريـا إلى أمهـا، ونظـرت الأم إلى ابنتهـا، وكل منهـما تطلـب الفـرج مـن الأخـرى، والفـرج عنهـما بعيـد! وسـالت دمـوع الأم أمـا البنـت فقـد جفـت دموعهـا!! لقـد حلـت الكارثـة، وجـاء وقـت التضحيـة! نعـم سـتكتب بنفسـها إلى سـهيل بالقبـول، ورجـوه أن يـسرع إلى البيـت فيقـع عـلى يـديْ أبيهـا معهـا يطالبـان بركتـه ورحمتـه، ويدخـلان الـسرور إلى قلبـه ويرفعـان عنـه مـا ينـوء تحتـه مـن هـمّ ثقيـل. أمـا مجـدي فقـد أحـسّ بضعفـه، وتحقـق مـن قـرب انطوائـه، فعـزم عـلى انتهـاج خطـة الحـزم!

وفي الصبـاح أُرسِـلَت مـن ذلـك البيـت الـذي خيّـم عليـه الحـزن والكآبـة رسـالتان:

واحـدة مـن مجـدي بـك لثابـت، والثانيـة مـن ثريـا لسـهيل... وسـهيل ينـام متأخـرًا بعـد انفضـاض أصدقائـه مـن حولـه، عـلى موائـد المـرح في مواخـير الفسـاد، وينهـض متأخـرًا. وثابـت ينـام باكـرًا، بعـد المطالعـة سـاعة أو سـاعتين، وينهـض باكـرًا. وقـد وصـل كتـاب سـهيل فبقـي عـلى مكتبتـه حتـى ينهـض! ووصـل كتـاب ثابـت فتناولـه بلهفـة وارتـدى ملابسـه وانطلـق كالسـهم إلى مجـدي بـك مضطـرب البـال، قلِـق الفكـر، مهتـاج القلـب!

قـرع البـاب ففتـح لـه. فـإذا الخـادم يقتـاده بأمـر مـن مجـدي إلى غرفـة

نومـه لخلـوة بينهـما. وعلمـت ثريـا بالأمـر وتحققـت أنهـا وإيـاه أصبحـا تحـت سـقف واحـد، فأخـذت أعضاؤهـا ترتعـش وأخـذ العـرق يتصبـب مـن جبينهـا وألقـت بنفسـها عـلى صـدر أمهـا وأخـذت تنتحـب! مـا هـذا ومـاذا تصنـع بالأقـدار التـي تعاكسـها؟! عـلى مـاذا عَـوّل الوالـد؟ ولم هـذه المفاجـأة في حـين إقدامهـا عـلى التضحيـة؟! وإذا حـضر سـهيل الآن مـاذا تصنـع؟ وأخـذت أمهـا بتهدئتهـا فقالـت:

- مـا بالـكِ عـدتِ للبـكاء؟! ألم تقـولي الآن أنـكِ نسـيتِ ثابتًـا وقـد أرسـلتِ تسـتدعين سـهيلًا؟!

فنظرت إليها ابنتها نظرة حزن وألم وأنشـدت متمثلة بقول الشـاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثل لي ليلى بكل سـبيل

فسـالت دموع الوالدة وضمت ابنتها إلى صدرها الخافق!

وقامـت ثريـا إلى غرفتهـا تهـدئ أعصابهـا، وتتهيـأ لملاقـاة سـهيل، وتسـتعد لتقديـم عنقهـا عـلى مذبـح التضحيـة! وثـارت أشـجانها وعاودهـا البـكاء! ثـم ألقـت بنفسـها عـلى مقعدهـا منهوكـة القـوى مستسـلمة، وأخـذت تنشـد قـول الشـاعر لنفسـها متعزيـة:

فإن تحجبوها وَيَحُل دون وصلها   مقالة واشٍ أو وعيد أسـير

فلـن يمنعـوا عينيَّ من دائم البـكا   ولن يذهبوا ما قد أَجَنَّ ضميري

إلى الله أشـكو ما ألاقي من الهوى   ومن حُرَق تعتادني وزفير

ثم بكت بكاءً مُرًّا.

ودخل ثابت غرفة ماجد بك، فإذا به ملقى على ظهره وهو جلد وعظم ولا لحم ولا دم! فهاله هذا المنظر، ولكنه تجلد وأسرع فركع بجانب السرير، وأمسك يده فقبّلها متحرقًا صامتًا! وصوت مجدي متأثرًا مما قرأه في عيني ثابت من الحب الصادق والحزن العميق والعاطفة الصحيحة، وأحسّ بالراحة تدخل قلبه فترطب أحشاءه، فابتسم ووضع يده النحيفة الضعيفة على رأس ثابت وقال:

- أنت ولدي! أنت ولدي!

سالت دموع ثابت مدرارًا وصمت متأثرًا. وبدأ المريض يتكلم بتؤدة وضعف!

- ولدي! إني جنيت على نفسي! وأدخلت البؤس إلى بيتي بيدي وأشقيتُكَ أنت. فهل تصفح كما صفحت هي؟!

فشرق ثابت بالدموع. وتمكن بعد جهد من إخراج صوت أجشّ من حلقه حمل هذه الكلمات:

- عفوًا! عفوًا!! سيدي! منكّ الصفح! أما أنا... أنا الجاني عليكم جميعًا! ليتني ما كنت ولا رأيت ولا أَحببت ولا أحبّتني!

- لا يا ولدي! أنتما لم تصنعا شيئًا! فلا تطلبا صفحًا! وإنما خلقت القلوب كي ترى، وتتقارب، وتحب! ألم تسمع بالقول المأثور: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، وأما الذنب على الذين يقفون بأعمالهم الطائشة سدًّا منيعًا دون هذه

الكميـة البالغـة! والآن خـذ واقـرأ.

أخـذ ثابـت إعـلان المحكمـة وقـرأ، وهبـط عـلى الأرض مكانـه ثانيًـا عطفـه خافضًـا رأسـه...

- أنـت شـاب يـا بنـي ولا أحـب أن أرى منـك ضعفًـا، إني أشـعر أني عـلى أبـواب هـذه الدنيـا مودعًـا، فـأود أن أشـعر أني تركـت فيـك ابنًـا قويًـا، يقـوم مقامـي، ويدفـع عـن ابنتـي كارثـة يهتـزّ منهـا قلبـي، وترتعـد لهـا فرائـصي، وتحـترق منها جوانحـي! انهـض يـا بنـي وأشـعرني بقوتـك، ودعنـي أعتـز بشـبابك، وأطمـئن إلى صلابتـك، فأمـوت مرتـاح الضمـير قريـر العـين. سـوف أدعـو زوجتـي وابنتـي لأسـلّمك مقاديرهـما، وتصبـح منـذ اليـوم ابنًـا لزوجتـي وأخًـا لابنتـي. حتـى إذا مـنّ اللـه عليكـما بفرجـه وخرجهـا مـن هـذا المـأزق الحـرج، أصبحتـما الزوجـيْن الأمينـيْن الوفيـيْن، تَفِـدان عـليّ وأنـا في مرقـدي الأبـدي، ترطبـان تـرابي بالرحمـة وتنعشـان رمتـي بطلـب المغفـرة!! لا تتكلـم دعنـي أنهـي كلامـي يـا ولـدي! لا تقاطعنـي! فـإن قلبـي يتكلـم لا لسـاني! لقـد أقمتـك وكيـلًا عـلى أمـلاكي وأمـوالي تديرهـا كأنهـا لـك! وجعلـت لـك مرتبًـا تتقاضـاه لـكي تـترك عملـك وتنقطـع لإدارة هـذه الأمـلاك بموجـب كتـابي هـذا إليـك! فخـذه منـذ الآن! وأريـد منـك بعـد أن تتحقـق مـن إقـدام سـهيل عـلى طلـب التسـليم بواسـطة السـلطة الإجرائيـة أن تفـرّ بعائلتـي مـن وجـه القانـون فتضعهـما في مـكان أمـين وترجـع لإدارة الأمـلاك ثـم تعـود إليهـا. فـلا تـدع عظامـي في قـبري تهتـزّ لقصـور يـؤدي إلى تسـليم ابنتـي لمـن أراد بهـا شرًا! لذلـك الوحـش الضـاري، لذلـك الثعلـب! لذلـك اللئيـم! قـل هـل أنـت فاعـل؟!

- أقسم يا والدي على ذلك!

وسمعا عندئذ صوت سيارة تقف على باب البيت فظنّا أنه الطبيب. فنهض ثابت ومسح دموعه! وأخذ المريض يهدئ أعصابه. وبعد برهة فتح الباب ودخل سهيل فرأى ذلك البائس في فراشه هيكل عظام، وخصمه واقفًا بجانبه كأنه تمثال القوة والبطولة، فنظر إلى كل منهما نظرة حمّلها كل ما يستعر به قلبه من نيران الغضب والبغض! وأسرعت وراءه ثريا حائلة اللون، مطأطِئة الرأس، وفي عينيها بريق الحزم الجنوني، وآثار الألم العميق، وعلى فمها ابتسامة مغتصبة، كَسَت ذلك الوجه الجميل برقعًا بشعًا فظيعًا اقشعرت منه نفس ذلك الوالد الراحلة! وتحقق ما أقدمت عليه ابنته من التضحية في سبيل إنقاذه، فَلَمعت عيناه الذابلتان بنور الحب ونار البغض! واستند بكلتا يديه إلى وسادته ورفع رأسه، وصاح بأعلى صوته:

- أيها القاتل السفّاك! أيّها المرائي النمام! اخرّج من بيتي! ولا تدنّس حرمي! لقد كنتَ نقمتي! هدمت سعادتي؛ وقضيت على أسرتي، فحلّت عليك لعنتي ولعنة الله والناس أجمعين!

قال مجدي بك هذا وقد توترت أعصابه واهتاج قلبه فعاودته نوبة ثانية أشدّ من الأولى، فهرع الخدم يستدعون الأطباء. وانسل سهيل بخِزيِه تحرق الأرم ويتهدد ويتوعد!

والتف الثلاثة الباقون حول سرير المريض وأخذوا في إسعافه، وازداد هو في هبوطه، حتى حضر الأطباء وأخذوا في معالجته!

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وساد السكون على ذلك البيت، إلا زفرات ذلك القلب الرطب الكسير! وحسرات تلك الثكلى الحزينة! وكل نفس ذائقة الموت!

الجار الطيِّب

مرّت على الحوادث السابقة سنة كاملة، حصل أثناءها سهيل على أمر من المحكمة الشرعية إلى السلطة الإجرائية في تسليم ثريا ابنة المرحوم مجدي الصالحي إلى سهيل بن خليل القوصي بصفتها زوجته الشرعية. وراح سهيل يطارد ثريا بهذا الحكم. وانبرى ثابت يقاوم السلطة بتهريب ثريا من مكان إلى آخر، حتى ضاق بها ذرعًا، وأنهكت ثريا وأمها متاعب التنقل ووقع المفاجآت، واضطراب الفكر وأشجان الهوى! فعوّلت على الابتعاد عن فلسطين مع أمها حتى يأتي الله بأمر من عنده. وأخذ ثابت والحزن يملأ جوانحه يُعِدّ سرًّا معدات السفر بمساعدة صديقه وجاره الطيّب سليم أفندي الخوري.

وجلس سليم ذات يوم في جنينته الصغيرة كاسف البال مضطرب الفكر. وكانت ابنته قد ذهبت منذ أمد قريب إلى بيروت ترويحًا للنفس بصحبة زوجها الدكتور شفيق. وإذا بالباب يقرع ثم يفتح. فتدخل منه امرأة فقيرة متسربلة بدرع فضفاض وقد اتشحت بسبلة خليلية بيضاء، وتقدمت إليه مترنحة في مشيتها من الإعياء وقالت:

- كيف حالك يا خواجة سليم؟ لقد نسيتني! وأنت معذور يا خواجة سليم! أنسيت غسالتكم فاطمة؟ فاطمة أم أحمد الخليلية!

- ها! أهلًا أهلًا بك يا أم أحمد! زمان عن أيامك يا أم أحمد! مالي أراكِ ضعفتِ وأهرمتك الهموم! كيف حالك؟

- وكيـف يكـون حـالي في هـذه الأيـام التعيسـة؟ زوجـي ضعيـف مقعـد! وابنـي أحمـد مـات في حيفـا حيـث كان يشـتغل في السـكة! ليتنـي مـتّ قبلـه، ليتنـي مـتّ ولم أرَ هـذا العـذاب، هـا أنـا مهـددة الأركان مُنهَكـة لا قـدرة لي عـلى العمـل. أنتقـل مـن مـكان إلى آخـر أطلـب حسـنات الذيـن عرفتهـم في أيـام الخـير كي أعيـش أنـا وذلـك العاجـز المقعـد! كيـف حالـك يـا خواجـة سـليم وكيـف حـال المحروسـة؟

- كلنـا بخـير! كلنـا بخـير! أهـلًا بـك! تعـالي اقعـدي هنـا... يـا عـلي يـا عـلي هـاتِ فطـورًا لأم احمـد.

قـال هـذا ونهـض إلى غرفتـه ثـم عـاد يحمـل صرة مـن ألبسـته الصوفيـة القديمـة فوضعهـا بجانـب المـرأة التـي انهالـت تلتهـم مـا قـدم لهـا كأنهـا لم تـأكل منـذ أيـام. ولمـا انتهـت وضـع يـده في جيبـه ونفحهـا بقطـع مسرعًـا كأنـه يريـد ألا تعلـم يـسراه مـا قدمـت يمنـاه؛ وقـال:

- اعذرينا يا أم أحمد! الوقت عسير، والدنيا تغيرت!

- هـذا كثـير يـا سـيدي! آه مـن هـذا الزمـان ومـن أبنائـه! هـذا كثـير يـا سـيدي في هـذا الزمـن الـذي ينـسى فيـه الأبنـاء أمهاتهـم. لـو تعلـم يـا سـيدي مـاذا صنـع فيّ ذلـك الابـن الـذي أشـبعته مـن دم صـدري. وقلّبتـه في أحضـاني أكـثر مـن سـنة. طـردني يـا خواجـة سـليم عندمـا عرفنـي ولم يرحـم عجـزي وكأني قدمـت عليـه لأقاسـمه أموالـه الطائلـة! وأخـذ يشـتمني ويبصـق عـليّ! هـذه حالـة الأغنيـاء!

- ومن هو ذاك الابن العاق يا أم أحمد؟

- سهيل القوصي يا سيدي، أليس هو ابني في الرضاعة؟ ألم يشبع من حليبي؟ ألم أسهر عليه الليالي أغمره بحناني؟ أتيت من الخليل يا سيدي على صيته. وقلت لعلّه يحنو عليّ اليوم في عجزي فما كان منه إلا أن طردني وبصق علي!

- مسكينة أيتها الام! وأين تذهبين الآن. اقعدي استريحي!

- أريد أن أزور ابنتي ثريا، بنت مجدي الصالحي. فقد أرضعتها أيامًا كانت أمها فيها مريضة وأظن أنها تعطف عليّ أكثر من هذ المغرور.

- ماذا تقولين؟ هل أرضعتِ سهيلًا وثريا معًا؟

- نعم يا خواجة سليم! أرضعت سهيلًا سنة كاملة كنت أثناءها أقيم في البيت معهم. وأرضعت ثريا مدة أسبوع بعد ذلك.

- وزوجك هل يعرف ذلك؟

- وكيف لا يعرف وهو الذي أشار عليّ البارحة أن أزور أولادي في الرضاع علّهم يحنون علي فطردني سهيل ومن يدري لعلّ ثريا أيضًا تطردني.

- الدنيا انعكست!

فاهتـز الشـيخ سرورًا وتوتـرت أعصابـه وظهـر عـلى وجهـه الاضطـراب وأخـذت أطرافـه ترتجـف وقـال بلهفـة:

- قفـي قفـي! هيـا هيـا معـي! خـذي هـذا جنيـه وسـأعطيك غـيره... الآن الآن نذهـب إلى الخليـل. أريـد أن أقابـل زوجـك، لا تخـافي أنـا مـسرور جـدًا، الآن نذهـب إلى الخليـل، هيـا إلى الخليـل!

- ولكـن مالـك يـا خواجـة سـليم؟ سـلامة عقلـك الآن كنـت تكلمنـي مثـل النـاس!

- لا تخـافي أنـا مـسرور فقـط، هيـا هيـا... يـا عـلي يـا عـلي.. اركـض وأحـضر سـيارة إلى الخليـل... طِـر يـا بنـيّ طِـر... لا تخـافي يـا سـيدتي أريـد فقـط أن أسـمع مـن زوجـك نفسـه أنـك أرضعـت سـهيلًا وثريـا فقـط، فقـط. وبعدهـا لـك عـشرة جنيهـات. ولزوجـك مثلهـا! هـذه السـيارة أتـت هيـا اركبـي، اركبـي بجانبـي يـا أم أحمـد. واللـه كلـك خـير وبركـة.

- ولكن يا سيدي أقعد بجانبك بثيابي القذرة؟!

- لا بـأس لا بـاس! كلنا خلقة الله! لا بأس، اقعدي.

وكأن هـذا الشـيخ الطيّـب القلـب قـد مُـسّ بتيـار كهربـائي هـزّ أعصابـه. فهـو لا يسـتقر عـلى حـال ويعـود فيسـأل ويكـرر الأسـئلة ويسـتعيد أقوالهـا ويكـرر لنفسـه مـا تقـول... ولمـاذا؟ ومـا هـو الدافـع؟ ومـا هـي الغايـة؟

أخـذت تلـك المـرأة تجيبـه وتسـائل نفسـها بـدون جـدوى! ومـاذا يهمهـا مـا دامـت تـسرد عـلى النـاس حـوادث عزّهـا يـوم كانـت تتقلـب في أحضـان

النعيـم في بيـت خليـل القـوصي ترضـع ابنـه!

ووصلـوا مدينـة خليـل الرحمـن. وراح سـليم يدفـع بـأم أحمـد إلى بيتهـا وكأنـه يخـشى أن يمـوت زوجهـا قبـل أن يصـل إلى مبتغـاه... وتندفـع هـي إلى بيتهـا وتصيـح:

- قـم يـا كسـيح قـم واشـكر ربـك! قـم واشـكر هـذا النـصراني الـذي غمرنـا بإحسـانه الكثـير قـم وانظـر. هـذا هـو الـذي يقولـون لـه جنيـه. حتـى هـذا تغـير مـن ذهـب إلى ورق!

وصاح الشـيخ المقعد من داخل كوخه:

- يـا عزمـات سـيدنا إسـحق! واللـه طـول الليـل وأنـا أدعـوه وأتشـفع بـه. ونفـسي قالـت لي بـأن اللـه سـوف ينظـر لي بشـفاعته.

اندفع سـليم إلى الداخل وصاح بالرجل ملهوفًا:

- قـل لي يـا أبـا أحمـد! لا لا تقـل قبـل أن ينتعـش قلبـك! خـذ! هـذه عـشرة جنيهـات لـك وسـأدفع مثلهـا عنـد إتمـام عملنـا معـك، قـل لي الآن، هـل تذكـر أن امرأتـك أرضعـت سـهيلًا بـن خليـل القـوصي وثريـا بنـت مجـدي الصالحـي؟

- نعـم يـا سـيدي وكيـف لا أذكـر ذلـك وقـد كنـت عندئـذ أتمتـع بأطيـب العيـش! لقـد كنـت عندئـذ أشـتغل في القـدس وكانـت امـرأتي مضطـرة للإقامـة الدائمـة في بيـت خليـل أفنـدي القـوصي لإرضـاع سـهيل. فكنـت أرجـع إلى البيـت معهـا كل مسـاء في غرفـة خصصوهـا لنـا في البيـت.

وبعد أن أقمنا مدة سنة في ذلك البيت طُلِبت زوجتي لإرضاع ابنة مجدي بك مدة أسبوع إذ كانت والدتها مريضة، فكنت أذهب كل مساء لزيارة زوجتي وكان أبوها يعطف عليّ ولا يتركني أعود حتى أتعشى! اذهب يا سيدي واسألهم إذا كنت لا تصدق.

فصاح سليم ملهوفًا:

- قُم يا سيدي قُم! أريد أن أسجل هذه الشهادة في المحكمة! قم أنت وزوجتك واصنعا هذا المعروف لوجه الله... ولكن لا أصبر سآتي بحمّال ينقلك إلى المحكمة.

وتمكّن سليم من تسجيل شهادة ذلك المقعد وامرأته في محكمة الخليل خشية أن يعلم سهيل الأمر فيحملهما بالرشوة على إخفاء شهادتهما. ثم تركهما ينعمان بفيض ذلك اليوم السعيد، وطار في السيارة نحو القدس.

وكانت ثريا تقيم مع أمها في بيت صغير بضاحية بيت لحم اتقاء العيون والأرصاد التي كان يبثها عليها البوليس بإيعاز سهيل وإلحاحه. فلما وصل سليم قرب المنزل ترك السيارة على جانب الطريق واندفع بين الكروم نحو البيت فوصله تعبًا يسبح في عرقه. ولم يتمالك نفسه منذ أن أقبل على البيت من أن يصيح: يا سيدتي! يا أم ثريا! خلصنا! يا ثريا! أين أنتم؟! خلصنا فالحمد لله ألف مرة.

وخرجت الفتاة وأمها إليه فأمسكت كل منهما بإحدى يديه وصاحتا:

- ماذا؟ قُل! أوضح!

- خلصنا. أهنّئكم، هيا نطير إلى ثابت وسلمى نهنّئهما!

- أوضح يا عمي! قل ماذا جرى!

- مسألة بسيطة! لقد حضرت مجلس القاضي في يوم من الأيام صدفة وسمعته يحكم بفسخ عقد الزواج لثبوت الرضاع بين رجل وخطيبته. واليوم تيّقنت أنكِ أخت سهيل بالرضاع. وسجلت شهادة المرضعة وزوجها في المحكمة فلم تبقَ إلا شهادة الوالدة ويُفسخ العقد! هيا هيا الوقت ثمين! الوقت من ذهب! يجب أن نتدبر في إقامة الدعوى هذا اليوم خشية ضياع الفرصة.

وصاحت أم ثريا وقد غمرها السرور ورأت باب الفرج يفتح أمامها:

- لا تسرع يا سليم أفندي تكلّم على مهل. ومن هي المرضعة!

- تلك الغسالة الخليلية التي يقولون لها أم أحمد. واسمها فاطمة امرأة داود أبو سيف.

- نعم! إني أذكر أن هذه المرأة أرضعت ابنتي. وثريا تعرفها جيدًا إذ هي تتردد علينا من وقت لآخر.

أما ثريا فقد اضطرب قلبها ثم أخذت مفاصلها ترتخي وأغمي عليها. فأقبلوا عليها يسعفونها حتى أفاقت. ولم تكد ترفع رأسها حتى صاحت بهما:

- هيا إلى القدس!

وانطلقت السيارة بالثلاثة وأخذ سليم يسرد عليهما تفصيل حادثة ذلك اليوم السعيد!

وهوج الريح يعقدها النسيم

بعد شهر من الحوادث السالفة. وفي يوم من أيام الربيع الصافية الأديم، إذ ينتشر العبير من أزاهير الربى على أجنحة النسيم، فينعش النفوس، ويرهف الحواس، وينشّط الأجسام، خرج زمرة من الناس من المحكمة الشرعية، ضاحكين مستبشرين، يهنئ بعضهم بعضًا، على ما نالوه من فوز بعد إخفاق، وما أحرزوه من نجاح بعد يأس. والتفوا جميعًا حول فتى مديد القامة، طلق المحيا، وفتاة كالملائكة جمالًا ورقة. وأخذ كل منهم يتكلم وكل يصرّ على أن يكون البادئ في إظهار ما جاش في صدره من آمال، وما غمر نفسه من شعور وما كنته جوانحه من حب صادق. وذلك الفتى وتلك الفتاة لا يدريان لمن منهم يستمعان ومن يجيبان والكل يتكلم في وقت واحد وأخذا يديران برأسيهما من الواحد إلى الآخر بدون شعور.

وأخيرًا صاح شيخهم يخاطب الحلقة:

- والآن وقد وصلنا إلى ساحل السلامة، واعتلينا ذروة النجاة فيجب علينا قبل كل شيء أن نزور فقيدنا مجدي، فنرطب ثراه بدموعنا، وننعش روحه الحائمة بالذكر الحسن.

فلم يتم كلامه حتى أطبق الشاب الطويل على يد فتاته وهي ترنو إليه فلا يطيق ناظراها انفكاكًا عنه، واقتادها بدون أن ينبت بنت شفة نحو باب الساهرة، إذ تطل من ربوة عالية قبورُ بعض سكان بيت المقدس على المسجد الأقصى. وتبعهما الدكتور شفيق وسلمى

والبـشر والحـب يطفحـان مـن وجهيهـما. وسـار وراءهـا الوالدتـان تبكيـان فرحًـا وسرورًا، واندفـع وراء الجميـع ذلـك الشـيخ الطيـب القلـب، والجـار الأمـين، مخاطبًـا نفسـه تـارة ويضحـك مـن نفسـه تـارة أخـرى. حتـى بـدأ المتقدمـون يصعـدون الربـوة فقـال الشـيخ:

- يـا ثابـت يا ابني! قف ولَقِنّي الفاتحة أتلوها على روح هذا الشـهيد!

تمّت

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي